١٠٢

روايات أحلام

فراشة الحبة

لن نموت غداً

www.liilas.com/vb3
www.liilas.com

روايات أحلام

فراشة المحبة

لن نموت غداً

ـ لا تستطيع أن تخطفني ثم تتركني أحترق في الجحيم وأنت تراقبني هكذا!

ـ بل أستطيع... سترين!

ـ لكنني سأموت!

ـ لن تموتي.. لا يموت أحد من التوقف عن الإدمان!

إيليون رجل لا يقف في طريق إرادته شيء، ولويلا فتاة أسقطتها الغفلة في التجربة المريرة... إذا وجدت الأمور صعبة منذ البداية، فماذا ستفعل عندما تستيقظ من كابوسها الطويل لتجد أنها واقعة في حب رجل لا تعكس عيناه إلا الشفقة على من أصبحت ظل امرأة؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل	الإمارات ٦ د.	مصر ٢ ج	ليبيا [illegible]
سوريا ٥٠ ل.س	قطر ٦٠ ر.	المغرب ١٥	[illegible]
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس [illegible]	[illegible]
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠	[illegible]

A /1999

www.liilas.com

١ ـ طريق آخر للجحيم

لا شك أنه كان واقفاً في الشارع في أثناء وجودها في منزل الموزع، ولكنها لم تلاحظه.

كانت تشعر بالسقم، بالتأكيد. كان إحساسها يوماً بعد يوم يتفاقم، ويصبح أكثر إلحاحاً. ثمة خوف متصاعد، وجوع، لا تستطيع مقاومتهما.

ربما لهذا السبب كانت متهورة.

ليس لأهمية الأمر حقاً.. فحتى لو لاحظته بعد ظهر ذلك اليوم، وتمكنت من القيام بحركة ما للمراوغة، لكان بكل بساطة انتظر وقتاً آخر، ومكاناً آخر.

لكن، والأمر على ما هو عليه، كانت غير مدركة لوجود الرجل الواقف قرب سياج المبنى الأسود وهي تنزل السلم من المنزل الڤيكتوري الطراز، أما اللفافة البيضاء الصغيرة فكانت مخبأة بأمان في حقيبتها.

نثرت ريح الخريف الباردة الشعر الأسود على وجه ابنة التسعة عشر ربيعاً البيضاوي. ولكن هذا الوجه حمل في ما مضى غموضاً كغموض لوحة «المادونا» أما الآن فهو شاحب مضطرب.

بدت لويلا ستيرلنغ في المعطف الأسود الضيق ضعيفة هشة. خطوط صدغيها نافرة وعظام وجنتيها وعنقها شاحبة فقد كانت هزيلة مؤخراً.. لو كانت تضع الماكياج راسمة فمها المكتنز وعينيها السوداوين لبدت خلاّبة، رائعة. لو وضعت الماكياج لصعب معرفة ما إذا كان ضعفها حقيقياً أم

www.liilas.com

مرضياً.

تجاوزت السياج بساقيها الطويلتين الأنيقتين. إنها تبحث عن المكان الذي ستأخذ فيه الجرعة الأولى فهي بأشد الحاجة إليها.. لأنها تأخرت كثيراً عن وقت الجرعة وقد تأخرت قصداً، تدفعها شجاعة غبية إذ كانت تخدع نفسها عندما توهمت أن ليس عليها الإسراع وها هي الآن في أشدّ حالات الانزعاج.

عندما أمسك الرجل الطويل ذراعها بثبات، أحست بالصدمة تعصر قلبها.

ـ لحظة من فضلك.

هتفت: «نعم؟»

كان طويلاً، سترته صوفية بنية شبيهة بجلد الغزال.. لم تره قط من قبل.. كان وجهه بارز الرجولة والدهاء، ولكنه وجه ملامحه خطيرة وعيناه الرماديتان أخطر من ملامحه. كانتا صافيتين عميقتين كبحيرة باردة.. فيهما قد يغوص المرء ويضيع في أعماقهما.

ـ أعطيني إياها.. أرجوك.

ـ ماذا أعطيك؟

ـ ليس طقس تشرين الأول مناسباً لإضاعة الوقت لويلا.. أعطيني لفافة الهيروين.. أرجوك.

يعرف اسمها إذن.. ربما كان من مكتب مكافحة المخدرات.. أوه يا الله! لم يكن لديها القوة على المجادلة. لقد غمرها إحساس باليأس، بحثت في حقيبتها ثم ناولته اللفافة الصغيرة.

كانت عيناه الباردتان تأسران عينيها أسراً لم تستطع معه إبعاد عينيها.

سأل: «غرام واحد؟»

هزت لويلا رأسها والهلع يملأ قلبها. لم ينظر إلى اللفافة، بل راح يدعكها بين سبابته وإبهامه مبعثراً البودرة البيضاء على العشب تحت قدميه.

شهقت متألمة للخسارة.. تحس بالحاجة الماسة إليها تنشب مخالبها في أعصابها بشراسة.. ثم فهمت الأمر أخيراً فالتفتت إليه مبتسمة ولكنها عادت فشهقت عندما تلاقت عيونهما.

ـ لقد ولى دليلك على أي حال.. ولم يعد لديك دليل ضدي الآن..

آمنت لبرهة أنه سيلقي القبض عليها، أخذت ساقاها ترتجفان من الصدمة.. حاولت أن تحرر ذراعها منه، لكن بلا جدوى فهو إمّا قوي قويّ جداً وإما هي فقدت القدرة على المقاومة.

ـ دعني!

ـ ليس بعد.

كان في صوته الهادئ رنة خشونة خفية جعلتها غير واثقة من هويته. إنه ليس من طراز رجال الشرطة خاصة مع هذا النوع من الملابس التي يرتديها.

ـ من أنت؟

ـ نحن بحاجة إلى التحادث. سيارتي وراء المبنى.

تعتقد أنه قصَّ شعره الأسود الكث في شارع فخم ولكنه لم يحاول على ما يبدو التخفيف من الشعيرات الفضية التي تشير إلى أنه في مطلع الثلاثينات.. أما السلطة في وجهه فلا يمكن إخفاؤها، وهذا ما يجزم أنه أكبر سناً، وأقوى منها بكثير.

ـ عندي موعد.

غالطها وكأن الفكرة تسليه: «لا، ليس عندك موعد».

تحدثه بغير ثبات:

ـ دعني أذهب.. وإلاّ صرخت بأعلى صوتي..

أدارها ليجعلها تلقي نظرة على الشارع وراءهما.

هتف برقة: «ثمة شرطيان شابان كفؤان جداً في تلك السيارة، يدعوان الله أن يحدث شيء مثير.. وأنا واثق أنهما سيهتمان جداً بك.. هذا دون ذكر صديقك الصيدلي الموجود في الشقة فوق».

www.liilas.com

www.liilas.com

تركته يقودها إلى مفترق الطريق وسألته: «هل.. أنت.. موزع؟»

برقت عيناه: «هيا الآن.. هل أبدو لك بهذه القذارة؟ تابعي السير لويلا».

ـ كيف.. تعرف اسمي؟

ـ لويلا، يأتي من معنى الوفاء، الوفاء لمشاعر الحب المجنونة..

كان برافقها مبتسماً، رشيقاً رشاقة المحب:

ـ طالما أحببت هذا الاسم.

أحست بالارتباك والتوتر عندما رأت المخدر يتبعثر وتضاعفت حاجتها إليه وهي تراه يرميه هكذا. ها هو الألم يزحف مجدداً بقوة مضاعفة إلى أطراف أعصابها.. إنها بحاجة إلى ما يثبتها، والآن..

ـ من أنت حباً بالله؟

كانت تحاول عبثاً التحرر من قبضته حين ثبتها قائلاً:

ـ لا تضيعي الوقت في المقاومة.. لن أؤذيك..

لكن قوته الجازمة في كل حركة يقوم بها كانت تؤكد لها أنه سينفذ ما يريد، مهما كان ما يريده.

تغيب الشمس في الساعة الرابعة في الخريف تاركة ظلالاً بين أشجار الحديقة العامة.. صدم رذاذ مطر خفيف وجه لويلا.. وأصبح كل شيء حلماً إلا الحاجة المتصاعدة في داخلها.

قطعا الحديقة حتى موقف السيارات.

ـ اصعدي إلى السيارة.. أرجوك.

كانت سيارة مرسيدس «كوبيه» رمادية قاتمة ذات زجاج قاتم. إنها رائعة وسريعة.. وقفت لويلا في مكانها، تقاوم قوة ذراعه بخوف حقيقي:

ـ إلى أين ستأخذني بالضبط؟ لم تعرّف عن نفسك.

ابتسم لها ساخراً: كوني عادلة! هل طلبت منك أوراقاً ثبوتية؟

كان يقف بينها وبين باب المرسيدس، يسد عليها طريق الهرب.. وتحرك بدقة خبير يعرف ما يفعل.. تخبىء رقته وعبداً لا مفرّ منه.

ـ اصعدي.

كان موقف السيارات فارغاً نسبياً إلا من أوراق الشجر المتطايرة في الهواء.. كان خيارها الوحيد الخضوع.

راح يتأمل ساقيها وهي تصعد إلى السيارة.

ـ كان عليك أن تكوني راقصة «لويلا».

صفقت الباب، تقفل على نفسها، كان فرش السيارة فخماً ومعطراً.. لاحظت نظراتها الحذرة والحائرة أن لا زر لفتح الباب.. تملكها الذعر وقبض على رئتيها بيد من حديد.. لكن الرجل المجهول لم يتأخر غير لحظات قبل أن يستوي إلى مقعد القيادة.

ـ أرجوك، قل لي من أنت؟

ـ أنا.. صديق.

تفرست في وجهه مرة أخرى تبحث عن شيء مألوف فيه، فلم تجده.. كان وجهه غريباً عنها.. غريباً، خشناً رجولياً.

حاولت لويلا إبقاء صوتها معتدلاً ولهجتها معقولة، إنها بحاجة إلى الهدوء. كان عليها أن تتحداه أمام الشرطيين.

ـ لا يعاملني أصدقائي على هذا النحو.

لكن من يستخدم المخدرات يكن عادة ضعيفاً وجلاً! كانت متوترة أكثر من اللازم لتفهم حقاً ما الذي يجري لها:

ـ لا أذكر أنني التقيتك قط!

أدار محرك السيارة: «هذا غير مهم الآن».

قاد السيارة إلى خارج الموقف المهجور.. وعندما أصبحت السيارة في آخر الشارع انعطف إلى طريق رئيسي تمر بشمالي لندن.. يكون ازدحام السير في الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة كثيفاً ومتواصلاً.

ـ كيف تشعرين؟

كانت حنجرتها جافة. أجابته بخشونة:

ـ أريد الخروج من هنا.. لا أشعر بأنني على ما يرام.

www.liilas.com

www.liilas.com

أمسكت أصابعها بمقبض الباب تهدىء من خوفها..
قال لها بهدوء: «ستكونين أسوأ حالاً.. من الأفضل أن تعتادي على هذا..»

فكرت بينها وبين نفسها: «اذهب إلى الجحيم».. ولكنها لم تنطق الكلمات.

وسألت: إلى أين تأخذني؟

- لقد فزت بعطلة مجانية في قلب الريف.. وهي عطلة ستحبينها.. حاولي الاسترخاء.. رددي أغنية، أو شعراً.

صرخت بشيء من الغضب: «لا تعاملني وكأنني طفلة».

تخلت عن محاولاتها العقيمة لفتح الباب. اتشحت بمعطفها الصوفي.. إنها لا تصدق ما يحدث.. لقد التقطت، ثم رميت لتتدحرج كورقة في مهب الريح.

- لماذا تتدخل بحياتي؟

رد ساخراً، كلماته هادئة ولكنها حادة كحد الموس:

- حياتك.. حسناً، إنه نجاح باهر حتى الآن أن أستطيع إبقاءك، واكتشاف سرّك.

التفتت إليه والغيظ يتطاير شرراً من عينيها:

- كيف تجرؤ على مخاطبتي على هذا النحو؟

نظر إليها نظرة ساخرة باردة سريعة:

- آه.. إذن هناك حياة لمدمن المخدرات!

- أنا لست مدمنة!

لكن لحظة الشجاعة لديها بدأت تخف على عكس التوتر الذي كان يتصاعد. كان كل عصب يشتد وكأنه وتر كمان مشدود ولن يطول الوقت غير ساعات أخرى حتى يحل بها البؤس. إنها متأكدة من ذلك لأنها حاولت الخلاص من إدمانها مراراً ولم تنجح.

نظرت من النافذة إلى الشوارع التي تسبح في الأمطار، كانت الأرصفة

براقة والمحلات مشعة الأضواء تعج بالمتسوقين. بدا هذا كله للويلا حلماً أو فيلماً سينمائياً تُحاك فيه المؤامرات ضدها.

ما الذي يفعله المرء في هكذا موقف؟ أيصرخ ويركل؟ أيحاول تحطيم السيارة؟ لا.. هي غير مذعورة إلى هذه الدرجة.. كما أن مشاعرها في هذه الأيام بلا لون أو طعم فالمخدر يخدّر إحساسها ويجمده. ولكن هذا الرجل الجالس قربها، سيطر عليها كفارس تصعب مقاومته.

كانت الوجوه في السيارات التي تحيط بهما غير مهتمه بهما، بل كل ما تنشده الوصول إلى المنزل من أجل تناول وجبة عشاء ساخنة في الضواحي. خطر ببالها الطرق على الزجاج بيديها، أو التلويح بذعر طلباً للعون.. لكن حتى وإن لاحظها أحد عبر زجاج المرسيدس الملوّن ستبدو غريبة الأطوار.

رضخت للأمر بصمت فليس لديها ما تقوله.. بعد عشر دقائق، بدأت ترتجف رغم دفء السيارة، إذ غلفها برد شديد وسيطر عليها.

مرر لها علبة صغيرة، هذا دون أن يبعد عينيه عن الطريق.

- خذي.

في داخلها حبتان كالإسبرين.

- ما..

ابتلعت ريقها بصعوبة وألم: «ما هذه؟»

- «وهل يهمك الأمر؟»

- طبعاً يهمني الأمر.

- إنها حبوب «فيزيبنتون».. خذيها.

- وما هو الفيزيبنتون؟

- ربما تعرفينه باسم «مبتادون» وهو عقار مخدر مخفف.

كانت أصابعها ترتجف وهي تلتقط الحبتين اللتين ستريحانها.. فهذا عقار يستخدم لمساعدة المدمنين على الخلاص من إدمانهم.. أحست

www.liilas.com

لويلا بغثيان يتصاعد في أعماقها. رغبت في رمي القرصين، ولعن هذا الرجل الغريب الأطوار والقول له إنها لا تريد هذا العقار اللعين.. لكن، لا مجال للرفض.

تجرعت القرصين ثم استلقت على جنبها وأغمضت عينيها مرهقة. ساعد العقار على تهدئتها نوعاً ما إذ يُستعمل هذا الدواء في المستشفيات، ولدى جمعيات معالجة المدمنين.. إذن إنه من المصلحين الاجتماعيين الحمقى..

قال معلقاً بطريقة مهذبة ووائقة:

ـ لقد خسرت الكثير من وزنك.

ـ وكيف عرفت؟

ـ أراني والدك صوراً لك.

تصاعدت دهشتها: «أتعرفه؟»

ـ كنت صديقه.

ـ صحيح.. ما اسمك؟

ـ ايليون أوكلاند.

ـ ايليون أوكلاند؟.

كان العديد من الناس على صلة بأبيها، ولكنها لم تستطع تذكر وجه هذا الرجل واسمه بسبب الألم المتجدد في دماغها.. إنه على الأقل ليس مجنوناً أو مغتصباً.. لكن من هو بحق الله؟ شدّت معطفها حول جسدها المرتجف:

ـ وما علاقة أبي بهذا كله؟

ابتسم قليلاً: «فلنقل إنني أنوب عنه بعمل كان سيقوم به بنفسه لولا موته».

داس على المكابح، فتوترت عضلات فخذه، وتمتم: «يا للنساء وقيادتهن!»

أدار المقود متجاوزاً سيارة فيات شاردة. حدقت في جانب وجهه

الأسمر وسألته بجفاء:

ـ تنوب عنه بعمل ما؟ أتقصد محاولة إبعادي عن طريق الشر؟

ـ ليس هذا بوصف سيء.

اندثر الظلام وتبددت هواجسها.

ـ آه.. بدأت أفهم.. وإلى أين ستأخذني؟ إلى مركز إعادة تأهيل المدمنين؟

ـ إلى شيء من هذا القبيل.

شكراً لله.

أرخت لويلا قبضتيها للمرة الأولى منذ صعودها إلى السيارة. كانت يداها عرقتين، وأظافرها محفورة في راحتيها، بدأ الخوف يبتعد، واسترخت على المقعد، تقول ضاحكة:

ـ أحفتني سيد ايليون أوكلاند.. ظننتني مقادة إلى مصير رهيب.. أهكذا تقوم بكل أعمالك؟

رد بهدوء: «عندما تستدعي الحاجة.. فالمدمنون أحياناً يقاومون بشراسة».

ـ أوه.. هذا أمر سخيف.. لن تنعت الشخص بالإدمان لمجرد تجرعه بعض المخدر.

ـ لكن، هناك اختلاف نوعي بين هذا والإدمان على الهيروئين.

دفع بحركة سريعة بشريط المسجل إلى الجهاز.

ـ سبق أن قلت لك إنني غير مدمنة!

ـ جدي تعبيراً ألطف إذن.. متعاطية؟ معتمدة؟

قالت بغضب:

ـ ما أفعله بحياتي هو شأني الخاص.

تؤكد الشراسة التي ترتسم على ملامح وجهه أنه معتاد على قيادة الآخرين.

سألت ساخرة: «ومن تظن نفسك؟ الفارس الأبيض الذي ينقذ الصبية

www.liilas.com

من التنين؟»

قال بهدوء: «في هذه الحالة، التنين لونه أبيض والصبية تبدو غبية لأنها لا تدري أنها في خطر».

ارتفع ردّ غاضب إلى شفتيها ولكن هدوءاً تسلل إلى شرايينها.. لقد بدأ العقار يعطي مفعوله تاركاً كل شيء وراءها. تنهدت ثم أرخت كتفيها المتوترتين لأن الألم بدأ يتراجع.

التفت إليها بسرعة: «أتشعرين بتحسن؟»

هزت لويلا رأسها ولكن عدائيتها ما زالت موجودة.

ـ متعبة جداً.

ـ نامي إذن لأن قيادتي ترعب معظم الناس، والرحلة طويلة، ثمة دثار على المقعد الخلفي.

فتشت عن الدثار الصوفي المخصص للسفر، بدأ إحساسها بالراحة والاسترخاء يجعل كل شيء غير مهم.. تنهدت وأرجعت رأسها إلى المقعد.. فالعقار قوي جداً:

ـ هل ينتظرون وصولي.. في مركز العناية؟

ـ أجل.

ـ لا.. أريد.. الذهاب!

خفف الميتادون من قدرتها على اللفظ، وعجزت عن إظهار الغضب في صوتها..

ـ لدي الخيار الحر، نحن لسنا في ألمانيا أيام النازية. وأنا لا أريد الذهاب إلى ذلك المكان!

ـ لم تريه حتى الآن.

تأوهت: هذا جنون مطبق.. ماذا أخبرتهم.. عني؟

ـ أنك بحاجة إلى مساعدة.

ـ وتتوقع مني أن أترك كل شيء وأذهب معك كي أعالج.. مهلاً.. كم تتوقع أن أبقى؟

قال بلطف: «لا داعي للعجلة. ليس لديك مشاغل ملحة».

ازداد توتر لويلا رغم العقار المهدىء.. اللعنة عليه.. إنه يعرف عنها أكثر مما ترغب. وهو يأخذها إلى مكان مجهول، ليعالجها أشخاص مجهولون.. آه ليتها تستطيع إجلاء التفكير.. لكن العقار جعلها تطفو بعيداً وجعلها عاجزة عن فتح عينيها.

ـ سيد أوكلاند..

ـ ايليون.

ـ ايليون إذن.. تظن أنك تقوم بعمل نبيل يستحق العناء؟ لكنك تهدر وقتك ووقتي.. لا أحتاج إلى مساعدة أحد.

ـ لا تحتاجينها؟

ـ لا.. ما إن توصلني إلى ذلك المكان المشؤوم حتى أخرج مباشرة.. وأركب أول قطار.. أو باص.. لأعود إلى منزلي.

ـ لا أظن.

جعلها أسلوب إجابته الصارم تفتح عينيها مؤقتاً.. وقالت متذمرة:

ـ أتعلم.. لا أظن أنني التقيت يوماً بشخص واثق من نفسه مثلك في حياتي!

رد بهدوء: «لا.. لا أعتقد هذا».

أصبحت غير قادرة على مقاومة «الميتادون» الذي كان أقوى منها.. أحست بأجنحة النوم تلفها وتجرها إلى الظلام.

* * *

ـ يا إلهي! البرد ينخر عظامي.

كلماتها مجرد أنين.. كانت محتبية على المقعد.. ما إن استيقظت جيداً حتى أدركت أن الرجل الطويل والسيارة الرمادية ليسا حلماً.

حلّ الظلام وأسدل الليل ستارته، كانت أضواء المرسيدس الأمامية تنير بوضوح الطريق الريفية المحددة. ما زالت تشعر بتأثير الميتادون، جلست منتشية. كان وجه ايليون غير واضح الملامح بسبب الظلام، وها

www.liilas.com

هي تنجذب إلى عينيه مجدداً بينما ينظر إليها.

- ظننت أنني سمعتك تتحركين. كيف تشعرين الآن؟

ردت بفظاظة: لست على ما يرام. منذ متى وأنا نائمة؟

- منذ ثلاث أو أربع ساعات.

امتدت يده القوية تبحث عن معصمها، محاولاً جس نبضها الدافىء، فتركته يقيسه بصمت.. كان عليها البقاء مستيقظة.. إنها بين يدي رجل قد يكون مجنوناً أو خطراً. لمس جبهتها.

- حرارتك مرتفعة.

دلكت ذراعيها الباردتين، ثم تدثرت جيداً.

- أحس ببرد شديد.. ألا يمكن أن تدبر جهاز التدفئة؟

- المكان حار جداً.. إذا رفعت الحرارة قد تذوبين. البرد ينبعث من داخلك.

عرفت نظراً لقدرة المرسيدس أنهما في أي مكان من انكلترا.

- أين نحن.. أما زال المكان بعيداً؟

- أمامنا بضعة أميال أخرى.

عظيم.. ما إن تر طبيباً أو شرطياً حتى تقول له إنها هنا بالإكراه، وستصر على العودة إلى لندن في أسرع وقت وسيواجه الجحيم عندما تخبرهم كيف خطفها..

سألت بقلق: «من المسؤول عن.. عن هذا المكان؟»

- عندما نصل تعرفين.

كان وجهه مظلماً، ولكنها لم تنسَ وميض عينيه الرماديتين، وفمه الآمر. هزت رأسها ثم ما لبثت أن أدركت فجأة أنها متشنجة من جراء الجلوس في السيارة لساعات مديدة وأنها ستقابل قريباً أشخاصاً وجوههم غير معروفة، ويجب ألا تعطيهم الانطباع بأنها مدمنة حقيرة.

بحثت في حقيبتها عن فرشاتها وحاولت تمشيط شعرها لتظهر مرتبة بعض الشيء. لا شك أنه قال لهم أن يتوقعوا مدمنة عاجزة.. ستستمتع

بجعل السيد أوكلاند يبدو غبياً.. وجدت زجاجة عطرها، ورشت قطرات باردة على عنقها ومعصميها فعبقت السيارة بعطر «ديروسيما» الفواح.

أحست به قبل أن تسمع ضحكته. نظرت إليه متوترة:

- ما المضحك؟

قال وهو لا يزال مبتسماً: «أنتم النساء. أحب هذا العطر.. ما اسمه؟»

ردت ببرود: «تعرف كل شيء عني.. ويدهشني ألا تعرف عطري».

ومضت أنوار السيارة الأمامية على مفترق طريق.. ولكنها تأخرت في قراءة الأسماء على اللوحات ولم تقرأ إلا اسماً واحداً: «هاركورت» وهو اسم لم تسمع به من قبل.. ربما المكان قرية صغيرة. صدمتها فكرة مفاجئة: قد يتخلى عنها مفعول المبتادون فجأة. أمضت وقتاً طويلاً بلا هيروبين.. وإن لم تتجرع جرعة ملائمة، وجدت نفسها في ورطة سيئة.

هل سيعطونها شيئاً في ذلك المكان؟ اللعنة! إصرارها على أنها غير مدمنة سيكون سخيفاً عندما تطلب أي نوع من المهدئات أضف إلى هذا أن من يتعاطى الطب لا يعطي الهيروبين إلى أي مدمن، وتجربتها تؤكد هذا الموضوع.

لكن يجب أن يساعدوها.. ألن يفعلوا؟ أعادت العطر إلى حقيبتها.. ليس أمامها خيار غير التوسل إليهم حتى يعطوها شيئاً ما مهما يكن.

بعد فترة وجيزة، وصلا أمام أبواب حديدية مرتفعة، تتحرك آلياً.. انفتحت الأبواب لتلج المرسيدس إلى الأملاك.

إنها مؤسسة فاخرة على ما يبدو. ولكنها، لم تشهد أثراً لبشري: لا أنوار، لا سيارات، ولا مباني. فقط لوحة كبيرة كل بضع مئات من الباردات «الرجاء القيادة ببطء.. جياد في الطريق».

فجأة شهقت وانفتحت عيناها لتستوعبا المشهد الرائع: قطيع من الغزلان يعبر الطريق أمامهما... أوقف ايليون السيارة.. أما لوبلا فقد تسمّرت في مكانها تراقب خفة هذه المخلوقات الرائعة وهي تمرّ مسرعة

www.liilas.com

وتظل أنوار السيارة.

سألت هامسة. والسيارة تنطلق ببطء إلى الأمام:

ـ ما هذا المكان؟ أهو فعلاً مركز تأهيل للمدمنين؟

ـ فعلاً.. نحن تقريباً في المكان المنشود.

انصبت أضواء السيارة على بناء ريفي يقع بين أغصان الزان المتمايلة.. لا أنوار تظهر فيه. توقف ايليون ليرجع بالسيارة إلى البيت.

ـ أهذا هو؟

هز برأسه قائلاً:

ـ وصلنا.

أوقف السيارة على أرض مرصوفة بالحصى، وأطفأ المحرك. حدّقت حولها غير قادرة على الكلام ثم رأته يمدد كتفيه القويتين وسمعته يتنهد تنهيدة عميقة.

ـ منزلي، ما أحلى منزلي.

ـ لكن لا أحد هنا!

فتح لها الباب.

ـ أصبح فيه أحد الآن.

لكن لويلا لم تكن على عجلة من أمرها لتتحرك، فالصدمة ما زالت تكبلها..

قالت وكأنها تتوسل:

ـ ثمة مستشفى في مكان ما.. أليس كذلك؟

فتح بابه، ثم ترجل.

ـ تعالي.

نرجلت ضعيفة واهنة ومتشنجة بشكل رهيب، كان هواء الليل بارداً فارتجفت.. أخرج ايليون حقيبتين كبيرتين من الصندوق ثم أقفل الغطاء قبل أن يقتادها إلى الباب الأمامي المحاط بسيقان اللبلاب.. فهمست:

ـ إنه حلم مزعج.

أخذت تحدّق إلى البيت المهجور.. الأمل الذي أقنعت به النفس بالتأثير في الموظفين المنتظرين تلاشى بسرعة.

ـ لا بد أنه حلم مزعج.. ما الذي سنفعله بحق الله في مكان كهذا؟

ـ نرى بعضنا بعضاً كثيراً، في الدرجة الأولى.

أضيئت أنوار ساطعة أنارت واجهة المنزل الجميلة. ارتسمت على وجهه بسمة خبيثة، ثم أدخلها إلى الداخل.

كانت غرفة الاستقبال مفروشة ببساطة وأناقة، جدرانها مكسوة بالجص الرائع، سقفها منخفض مدعوم بجذوع ضخمة من أشجار السنديان. عدة لوحات معلقة على الجدران لجياد من الواضح أن بعضها يعود إلى القرن الثامن عشر.. كان زوج من السيوف الدقيقة الطويلة معلقين بشكل متقاطع على جدار تحتهما صف من المسدسات القديمة.

كانت المدفأة المفتوحة تتسع لشواء ثور كبير وهي الآن تحتوي على موقد ذات طراز اسكتلندافي مزيّنة بجلد دب قطبي. أشعل ايليون عود ثقاب في كومة الحطب.. وما إن تعالت ألسنة اللهب حتى وقف يتأملها بلهفة. أمّا لويلا فقد كانت تنظر حولها بجمود وخوف وقلبها يخفق بثقل في ضلوعها.. أين هو الجهاز الطبي.. الممرضات، العيادة، الممرات البيضاء النظيفة التي توهمت أنها موجودة؟

تصاعدت الحاجة في داخلها، وبدأت ترتعش مرة أخرى، لقد بدأ تأثير «الميتادون» يزول وها هي تفقد القدرة على الصمود، والمواجهة.

كسر صوته الدافىء الحاد صمتها:

ـ أعطيني معطفك.

لم تقاوم وهو يساعدها على خلع معطفها.. كان طويلاً جداً، أطول مما تتذكر. وعيناه الرماديتان اللتان تنظران إليها من فوق كانتا ثاقبتين. لا تعلم لماذا ارتعشت عندما مد يده محاولاً إعادة خصلات شعرها عن وجهها.

قال بعذوبة: «شيء مؤسف.. لولا سقمك لبدوت أجمل بكثير».

www.liilas.com

أحست وهي تحدّق إلى وجهه بأن فيه أمراً غريباً. أمر له علاقة بالجبال، بالصحراء، وبالأماكن المرتفعة المتوحشة.. فهل هي أسيرة بين يدي رجل خطر غير متزن عقلياً؟ ارتبكت واستولى الذعر على قلبها.

إنها خائفة ودموعها مختنقة.. لكن عليها أن تقاوم البكاء حتى تسيطر على نفسها.. التفتت نحوه بحدة وصرخت:

ـ ماذا ستفعل بي؟ أين هم الأطباء؟ أين الممرضون؟ لماذا ليس في هذا المكان أحد سوانا؟ أحتاج إلى دواء! يجب أن أتناول شيئاً.. الآن!

ـ لا.

كان الرفض الهادىء أشبه بصفعة على وجهها، فسألت بغضب:

ـ لِمَ لا؟

ـ لأن «الميتادون» يسبب الإدمان.

صاحت: «ما هذه بمزحة جيدة.. من المفترض بك أن تساعدني!»

لم تؤثر لهجتها المتعالية في برودة ايليون.. كانت خطوط فمه غامضة بشكل مثير وهو يجيب.

ـ ما هي بمزحة.. أنا أساعدك. والله يعلم أنك غير قادرة على مساعدة نفسك.

توسلت إليه: «مرة واحدة فقط».

بدأ الواقع يترسخ الآن، ومعه جاء الألم والخوف. لم تزعج نفسها في محاولة الكذب بشأن حاجتها الشديدة إلى المسحوق الأبيض.

فكرت: أمر غريب.. عندما أتجرع المخدر أشعر أن بالإمكان الاستغناء عنه.. ولكن، ما إن يبدأ تأثيره بالزوال حتى أدرك أنني عاجزة عن التخلي عنه.

فتحت شفتيها الجافتين، تحاول أن تبدو راشدة:

ـ قرص «ميتادون» واحد. أرجوك.. أحتاج إلى شيء الآن.

أصرّ على موقفه بصوت قاس غير ودود:

ـ يجب أن تتوقفي عن التفكير في أي نوع من المخدر.. يجب أن

تعتادي على مواجهة الحياة بدونه.

أحست بأطراف أعصابها تشتد حول جسمها، ببطء بشكل لا يرحم. مرت عليها اثنتا عشرة ساعة بلا مخدر.. ارتمت على الأريكة، مرتعشة اليدين تحاول احتضان نفسها:

ـ اسمع.. لا يمكنك حجزي هنا وقتاً طويلاً.. مهما كانت نيتك شريفة لن تستطيع..

ابتلعت ريقها بصعوبة وتابعت:

ـ... يجب أن تفهم.. أنا.. أنا.. بحاجة إلى شيء ما..

ـ هل انتهيت؟ سأعد بعض القهوة.

ثم ارتد عنها بكل هدوء.

ـ انتظر!

سحبت نفساً طويلاً بطيئاً. إنها خائفة من ضربات قلبها المجنونة.. يجب أن تبقى هادئة.. أخبرها إحساس بدائي بأن من الضروري عدم إظهار جزعها.

ـ حسناً ربما أنت على حق.. ربما لدي مشكلة.. ولكنها ليست مشكلة تستطيع أنت التعامل معها. يجب أن أرى طبيباً.

نظر إليها وقبضة يده على خصره، وعيناه حادتان:

ـ على بعد دقائق من هنا طبيبة أطلبها إن احتجت إلى ذلك ولكنني لا أظننا نحتاجها في أي وقت.

ـ اللعنة عليك!

تقوس حاجباه الأسودان إلى الأسفل ليكبحا هستيريتها:

ـ لا تصرخي في وجهي.. يجب أن تكبري لويلا بسرعة.

توجه إلى النافذة وأقفل ستارتها.. جلست مشلولة مذعورة، لولا ركوبها بالمرسيدس هذا الصباح لما كانت تعاني هذه المعاناة.

ارتد إليها وخاطبها بصراحة:

ـ أنت على حق، اسمعي! ستبدئين بالشعور بالمرض والسقم. لكن

www.liilas.com

لن تكوني مريضة كما تتصورين. . فالمدمنون يبالغون في إبراز عوارض الانقطاع. . يبالغ معظم الناس كذلك، خاصة المروجون.

ـ وكيف تعرف هذا بحق الله؟

في وجهها جمال شفاف، عيناها واسعتان، تنظران إليه بتمعن:

ـ أنت تتكلم وكأنك وسيط روحي.

ـ ثمة طرق متعددة للشفاء. . وليس منها طريقة خالية من المخاطرة. إما المزيد من الإدمان وإما المزيد من الضرر.

رفع أحد السيوف الرفيعة عن الجدار. . ووجه رأسه الحاد إليها:

ـ أعتقد في مثل حالتك أن التوقف التام عن التعاطي هو خير علاج لك.

في تلك اللحظة فقط، بدأت تفهمه.

ولكن الفهم صدمها صدمة قوية، آلمتها وأرعبتها.

همست: «لا. . ستجعلني أمر بصدمة باردة. . أليس كذلك؟ ستجلس هنا تراقبني فيما أتحرّق في الجحيم!»

* * *

فراشة المحبة

٢ ـ أبعد عني الأحلام!

ابتسم وهو يرد ببرود:

ـ لن أصف الأمر بهذه المأساوية. . لكن، من حيث المبدأ أجل.

ـ لا تستطيع.

ـ بل أستطيع. . ستربن.

ـ ولكنه تصرف وحشي!

ـ ألم تقولي إنك لست مدمنة؟

ارتعش جسمها كله الآن. . وأرسل الذعر شراراته إلى شرايينها.

ـ قلت إنني أواجه مشكلة. . اللعنة عليك! أهذا ما تريد؟ أن تسمعني أعترف بأنني عالقة؟

ـ هذه بداية جيدة.

قالت يائسة: «حسن جداً! ربما أنا عالقة! إنما لا يمكنك دفعي إلى التوقف بهذه الطريقة. . سأموت!»

طوى السيف الدقيق إلى ما يشبه القوس فبانت الخطوط حول فمه أكثر وضوحاً.

ـ لن تموتي. . هذا كلام أطفال. لا يموت أحد من التخلي عن المخدر بل العكس هو الصحيح. . فمواصلة الإدمان هو ما يقتل بالتأكيد، والخلاص من الإدمان أسهل من الإصابة بانفلونزا قوية.

قالت مرتجفة، وهي تدعو الله ألا يكون قاصداً ما يقول:

ـ أنت لا تعرف عمَ تتكلم.

www.liilas.com

شعرت بصدمة باردة.. فهو لا يريد إعطاءها ما يخفف العذاب.. لا يمكنه فعل هذا.. لا يمكنه!

لكنها عرفت غريزياً أنه لم يكن الرجل الذي يقول كلامه جزافاً.. ولا يمكن أن يجليها إلى هذا المكان قاطعاً كل هذه المسافة إن لم يكن مقتنعاً بأنه سيدفعها لفعل ما يريد.

أعاد ايليون السيف إلى مكانه.. خلع سترته وربطة عنقه ورماهما على مقعد ذي مسندين.

- فلأوضح لك الأمر، سنمضي أنا وأنت الأيام الخمسة عشر القادمة هنا.

نظرت إليه برعب وهو يتقدم ليجلس إلى جانبها.. عند فتحة أزرار قميصه بدت بشرته شديدة الاسمرار... تابع بصوت مخملي ناعم:

- لن تذهبي إلى أي مكان.. لا في هذه الليلة، ولا في أي وقت آخر. اهتممت بشؤونك كلها.. إيجار شقتك في لندن مدفوع. وسيارتك موضوعة في كاراج بحيث لن يلاحظ أحد غيابك.. لن تغادري هذا المكان حتى تتخلصي تماماً من إدمانك.

ابتسم فبدت أسنانه بيضاء جميلة:

- عدا هذا.. أنت حرة في فعل ما تريدين. ارفعي كمك!

سألت خائفة: «لماذا؟»

- أريد فحص ضغط دمك.

أطاعت.. وخوف الاحتجاز يسيطر عليها.. إنها الآن تحت سيطرته كفأرة بين مخالب قط.

- اسمعي أنا عازم كل العزم على إنقاذك.

ضخ الكيس حتى آلم ذراعها، ثم أخذ يفرغه وعيناه على الخط الزئبقي..

حاولت جهدها مقاومة الذعر المتصاعد:

- لن تفعل هذا بي.. لا يمكنك تحمل المسؤولية!

قال بثقة شديدة بالنفس:

- بل يمكنني.. فأنا أتحمل مسؤولية حياة العديد من الناس يومياً.

- هل.. أنت طبيب؟

فك الكيس: «لا.. ضغط الدم منخفض، وهذا أمر جيد ولكنه سيرتفع».

- لست طبيباً؟ إذن أنت لا تعرف ما قد يصيبني.

أمسك يدها اليسرى ثم ضغط أصابعه على معصمها ليقيس نبضها:

- أنت تستخدمين الهيروين منذ فترة قصيرة.. تتعاطينه بالشم.. وهذا أفضل من الحقن. أنت خائفة، قلبك متسارع النبض، ولكنه ثابت.

ترك معصمها ثم نظر إليها:

- بعد ثلاثة أو أربعة أيام، ستجتازين أسوأ مرحلة وما إن يمضي أسبوع أو أسبوعان حتى تعودي إلى طبيعتك.

شعرت لويلا بأنها تهبط.. أخذ الميتادون بكل تأكيد يختفي من الدم، أوحى لها بذلك الألم في صدرها. إنها الآن أشبه بسفينة تتجه بسرعة نحو الصخور.

قالت، والعرق يتفصد من جبينها ومن شفتها العليا:

- ليس من الضروري أن تفعل هذا بهذه الطريقة.. فأنا قادرة على التوقف متى شئت.

سألها ساخراً: «صحيح؟ حسناً.. إنها فرصتك لتثبتي ذلك».

أدركت يائسة أنه لم يفهم.. يجب أن تهرب منه، إنه أملها الوحيد.. ستنتظر أقرب فرصة لتهرب منه.. ستركض بين الأشجار حتى تبلغ الطريق..

لكنها في الريف.. ولا فكرة لديها في أي مكان هي بالتحديد.. ربما في مكان ناء جداً، ولا تدري كم تبعد أقرب بلدة عن مكان وجودها. قال لها: إن هناك طبيبة قريبة، لكنها لا تعرف أين بالتحديد..

اليأس قال لها إن لا أمل لها في إيجاد من يساعدها.. كان يراقبها

www.liilas.com

بعينين باردتين، كفهد الثلج، وكأنه يتابع كل أفكارها.

ـ لن يعرف أحد أين أنا.. وسيقلق الناس...

قاطعها ببرود وحشي:

ـ أشك في هذا، ليس عندك وظيفة تذهبين إليها.. تركت عملك في «السيتي نيوز» منذ شهرين.. كانوا يخشون أن يصيبك شيء من هذا.. أليس كذلك؟

ـ وكيف عرفت..

تابع: «لم ترك أمك منذ أسابيع.. بل لا تعرف أنك مدمنة.. على أي حال، ستتصلين بها غداً وتخبرينها بأنك تمضين إجازة قصيرة في اسكتلندة.. أما أصدقاؤك..

هز كتفيه بسخرية:

ـ .. أشك في أن يكون عندك ذاك النوع من الأصدقاء الذين قد يقلقون لاختفائك.. خاصة بعدما عرف الجميع أنك مدمنة.. وهذا أمر يدور بين الناس بسرعة.. ويجتذب دعاية سيئة.

حاولت مكالمته بمنطق، فقالت وهي تنتقي كلماتها بحذر متوتر:

ـ أعرف أنك قلق عليّ.. وأنك كنت صديقاً لوالدي. وأعرف أنك تظن أن بإمكانك مساعدتي ولكن الأمر ليس بهذه البساطة.. ولا يحق لك أن تفعل هذا. ألا تفهم؟ أنا لا أعرفك! لا أستطيع أن أضع نفسي هكذا بين يديك.. أحتاج إلى من أثق به..

ـ ليس لديك من تثقين به.

كانت الكلمات حريرية ناعمة ولكنها كالسوط في قسوتها:

ـ ليس عندك عائلة لويلا.. ليس عندك حبيب.. وليس عندك صديق قوي ليساعدك على تخطي هذه المرحلة.

ابتسم الفم العميق الخطوط:

ـ وليس عندك الإرادة لتفعلي هذا بنفسك، أنت بحاجة إلى مساعدة أحد، تحتاجين إلي.

جلست صامتة. أغمضت عينيها تحاول أن تبعد العالم عن تفكيرها.. «تحتاجين إلي» يا لها من كلمات مخيفة.

أمسك ابليون ذقنها بأصابع قوية، ففتحت عينيها تنظر إليه..

قال لها: هل تفهمين خطورة حالتك؟ أم تريدين أن يقتلك الإدمان؟

ـ بالتأكيد لا...

ـ إن لم تتخلي عن الإدمان الآن لويلا، تخسري مستقبلك.

بدا كأن كلماته علقت في الهواء، فلا تستوجب الرد منها.. في الليل القاتم في الخارج، نعب البوم. كان نعيه كصرخة متوحشة مستوحدة.. إن الهيرويين يقود المدمن إلى الموت المحتم.. لقد شاهدت هذا يحدث عشرات المرات. فقد تركت «السيتي نيوز» ودخلت إلى عالم المخدرات الغريب.. الأسابيع الأخيرة التي عاشتها في هذا العالم الغريب كانت جنوناً لذا فهي تعرف أنه يجب أن يتوقف هذا الجنون.. ولكن، ليس بهذه الطريقة، ونحت الإكراه.. وعلى يد غريب..!

أصبحت باردة كالثلج، بشرتها عرقة، أعصابها متشنجة، قال:

ـ ثلاثة أسئلة أخرى.. هل تتعاطين شيئاً غير الهيرويين؟

هزت رأسها نفياً. يستحيل أن يحدث لها هذا.. لا بد من وجود سبيل للخروج من هذا الكابوس. طالما وجدت طريقة من قبل.. شيء يمكنها تقديمه له.. رشوة ما، ليتركها تذهب..

ـ لا مسكنات أو منومات؟

ردت بصوت منخفض: «لا».

ـ لا تكذبي علي. الأقراص أخطر من الهيرويين.

ـ لم استخدمها قط.

ـ ولم تتعاطي الحقن من قبل؟

ـ لا.

ـ عظيم.. هل أنت حامل؟

صاحت به غاضبة: «وما شأنك أنت بهذا؟»

www.liilas.com

ـ الأمر يتعلق بالجنين.. إن كنت حاملاً، فالجنين قد يدمن مثلك، ولكنه على عكسك لن يعيش عوارض التوقف.

نظرت إليه لويلا برعب. صدمتها كلماته أكثر من أي شيء آخر في الساعات الماضية.. وللمرة الأولى أدركت كم يحتقرها هذا الرجل، وكم تبدو في نظره كريهة..

ردت بصوت خفيف:

ـ لست حاملاً.

ـ ما هي كمية المخدرات التي استخدمتها حتى ليلة أمس؟

ارتجفت: «لا أعرف».

ـ بل تعرفين.. أعتقد أنها ضعف الكمية التي بدأت بها.. غرام واحد يومياً؟

ابتلعت ريقها إذ كان حلقها جافاً كالكرتون.

ـ لا.. ليس بهذا القدر.. نصف غرام فقط.

ـ أتقولين الحقيقة؟

في صوته الناعم حدّ خطير، هزت رأسها بصمت.. فأمسك ذقنها يرفع وجهها لتلتقي عيناها بالعينين الملونتين بلون جرف قطبي.

ـ عظيم.. كان يمكن لهذا الأمر أن يكون أسوأ.. تعرفين أنك مدمنة.. أصبحت مدمنة منذ البدء بتعاطي المخدرات. وهذا يعني أنك ستعانين من عوارض التوقف، بالسوء نفسه الذي سيعانيه المدمن المزمن.. لن يكون الألم أخف لأنك تعاطيته فترة قصيرة.. أتفهمين؟

همست: «أجل».

لاحظت وجود شعر خفيف حول شفتيه وذقنه ولاحظت أن العضلات تحت قميصه الحريري رشيقة وقوية.

ـ ستفقدين قدرتك على التحمل بسرعة لويلا.. وإن حاولت العودة إلى المخدر قتلت نفسك. أتفهمين؟

استطاعت أن ترد بصعوبة: أجل.

كانت تعرف أن عودة المدمن لتعاطي المخدر بعد اجتياز نصف الطريق في العلاج منه قد يقتله.. أوضحت لها الفكرة مدى هشاشة موقفها وضعفه.. وللمرة الأولى تدرك أن كل ثانية تمر تجعلها أكثر فأكثر تحت سيطرة هذا الرجل.. عندما تبدأ بدخول ظلمة الألم، فستحتاج إلى من يساندها وهي لا تثق بهذا الغريب. ستفقد السيطرة على حياتها.. وما قاله سيكون الحقيقة، حتماً ستحتاج إليه كلياً.

لقد أجبرها على أن تخطو الخطوة الأولى في طريق طويلة تقود إلى ما يشبه الجنون.. طريق لا سبيل إلى التراجع فيها. أحست بأول الأعراض في معدتها، فقالت بصوت مختنق:

ـ أين الحمام؟ أريد أن أتقيأ.

أمسك لها جبينها وهي تتقيأ.. جعلها تحس بأنها طفلة تكتسحها الحمى. عندما انتهت استند إلى الجدار ينتظرها ربثما تغسل وجهها. ثم قال بلطف:

ـ الآن، سأرافقك إلى غرفة نومك.

ـ غرفة.. نومي؟

كانت صدمتها كبيرة بحيث لم تترك لها مجالاً للتفكير.. الغرفة الجميلة الأثاث كأنها صممت خصيصاً لها. الستائر، والفرش، وأغطية المصابيح، من قماش الشيت المطبَّع الناعم.. الأثاث البسيط الأنيق من النوع الذي تحبه كثيراً.. حتى الألوان كانت من الألوان المفضلة لديها. غرفة بيضاء عاجية تليق بفتاة عذراء.

جلست لويلا على السرير وأصابعها تحفر الغطاء الناعم.

ـ منذ متى وأنت تخطط لهذا؟

هز كتفيه وهو يجيب:

ـ ليس منذ وقت طويل.. فلم يكن لدي الوقت الكافي. وهذا ما يذكرني..

فتح باب الخزانة:

www.liilas.com

ـ اشتريت لك بعض الملابس.. لكنني كنت مضطراً إلى تقدير مقاسك.. قد لا تجدين ما يناسبك.

حدقت لويلا إلى التنانير المعلقة فوق قضيب المشجب وإلى لمعان الحرير في الأدراج.. اختار هذه الملابس لها وخطط لاختطافها.. كانت الغرفة دافئة، وبشرتها رطبة. ومع ذلك كان جسدها بارداً حتى العظم.

سألت بهدوء: «متى تتركني أرحل؟».

ابتسم ابتسامة تشوبها السخرية:

ـ قلت لك.. عندما تصبحين أفضل حالاً.. كنت حمقاء صغيرة لويلا.. ويجب عليك الآن مواجهة النتيجة بنفسك.

هزت رأسها بغباء دون أن ترفع بصرها إليه:

ـ لا أستطيع.. لا.. أستطيع!

كانت رغبتها في المخدر كالظمأ الشديد. لم تعرف أنها قد ترغب فيه إلى هذا الحد.

صب لها كوب مياه معدنية، من زجاجة قرب سريرها.

ـ أنت مضطرة.. ارتشفي الماء فقد يساعد في تخفيف الغثيان.

رفعت الكأس إلى شفتيها ترتشف منه القليل وهي تئن متألمة.

ـ لقد حذرني والدك من شخصيتك القوية. أنت تشبهينه أكثر مما تعرفين.

نظرت إليه لويلا نظرة احتقار:

ـ ألأنك صديق أبي تظن بأن لك الحق في زج أنفك في حياتي؟.. هذا غير صحيح سيد أوكلاند.. أنا لا أكاد أعرف أبي.. ولا أدين له بشيء أبداً!

قال، ووميض في عينيه، قد يكون غضباً:

ـ تدينين له؟ هذه طريقة مضحكة لوصف الأمر.

ردت ساخرة: ليس انفصال الأبوين والطفل في الخامسة بأمر يبعث الاطمئنان في النفس.. ثم انفصالهما مجدداً وأنت في الخامسة عشرة

يجعلك تظن بأنهما يفعلان هذا ضدك.

ـ يا إلهي.. أستغرب قدرتك على الحياة هكذا.. وهذه الشظية بين كتفيك.

ـ آه.. اذهب إلى الجحيم! كان أبي عديم المسؤولية. عرفته مدة سنتين أي في أثناء صلح مشوش، أضف إلى هذا أنني شاهدته ربما ست مرات في حياتي كلها.

مالت فوق الوسائد وخطوط جسدها النحيل مشدودة كعضلات راقص.

ـ كم مر من السنوات بدون أن أراه.. فلا تنتظر مني أن أتسامح فيما تفعله بي، من أجل أبي.

ـ أنا لا أريد تسامحك.. وبمناسبة الحديث عن المسؤولية، لم تكوني ملاكاً.. أليس كذلك؟ والمخدرات هي آخر لائحة انتهاكات لويلا ستيرلنغ للقانون.

ـ هذا غير صحيح!

قال ساخراً:

ـ أوه.. هيا الآن، لقد تم القبض عليك مرتين يا فتاة. مرة لمشاركتك في سرقة سيارة.. وفي الثانية كنت محظوظة لخلاصك من السجن بعد إلقاء القبض عليك تتظاهرين خارج..

صاحت بغضب:

ـ كانت المظاهرة حول شيء أحسست بأحقيته جداً. والشرطة تصرفت كالفاشيين!

ضحك:

ـ كانت التهمة مقاومة الاعتقال واستخدام ألفاظ بذيئة.. أليس كذلك؟ أنت شرسة تماماً آنسة ستيرلنغ.. ومن المؤسف أن تطفئي كل تلك النار بالهيروبين.

نظرت إليه بقلق. كان طويلاً متعجرفاً في قوته، وهي في التاسعة

www.liilas.com

عشر، أما هو ففي الثانية أو الثالثة والثلاثين. ولن يستطيع فهم أي شيء عنها..

سألته متعبة: «كيف تعرف كل هذا؟ هل أخبرك أبي؟»

ـ تقريباً. ولكنني تحدثت إلى الكثيرين عنك.. قد تدهشين إن عرفت أن العديد من الناس مهتمين بأمرك عزيزتي.

تحدته ساخرة: «ولماذا تصيبني الدهشة؟ إنه عالم يحب ناسه بعضهم بعضاً ويهتم كل فرد بأخيه الإنسان».

قال بصوت بارد: «أنت فتاة غريبة، لا أعرف إن كنت أشرس فتاة تعرفت إليها أو..»

تحدته عندما توقف: «أو...»

ـ أو أنك أعجزهن.

التوت لويلا إلى جانبها تضم الوسادة على وجهها.. يا للنذل.. إنه يعرف أموراً كثيرة عنها. يعرف كيف وأين يؤلمها.. يا الله.. ليتها تستطيع تجرع شيء، شيء يبعد عنها الإحساس بالألم الذي يتصاعد إلى أعصابها.. أغمضت عينيها بشدة لتمنع الدموع التي بدأت تتجمع في مآقيها، لكن الدموع وجدت طريقاً لها من بين أهدابها السوداء الطويلة.

قال ايليون بهدوء: «مر منتصف الليل، ويجب أن تحاولي النوم».

لم تقاومه وهو يشد الغطاء حول كتفيها.. كانت يداه قويتين قادرتين ككل شيء فيه.. رفع يداً ليلمس خدها البارد بأصابع دافئة.

ـ على الفتاة ألا تكره أباها، حتى وإن كان لا يعرف معنى المسؤولية.

أبعدت وجهها عن لمسته تسأل بصوت مرتعش:

ـ بماذا تدين لأبي؟ أم تراك تفعل هذا بسبب ذنب اقترفته؟

مسح دموعها بأصابع مرتجفة.. وقال لها:

ـ أفعل هذا من أجلك يا شقية.

أضاف: سنتحدث في هذا غداً.. لدينا متسع كبير من الوقت.. حاولي النوم. غرفتي هي الغرفة المحاذية لغرفتك. إن أردت شيئاً،

www.liilas.com

ناديني.

لم ترد، سمعت الباب ينغلق بنعومة.

كان الصمت مخيفاً.. تعم غرفتها في لندن الضجة طوال الليل بسبب السير المتواصل الذي لا يتوقف، ارتعشت مجدداً.. وبدا لها أن ما من شيء قد يدفئها.. ولكن من الأفضل عدم التفكير في جسدها بل التفكير في شيء آخر.. أي شيء.

خرجت متوترة من فراشها.. كانت النافذة مقفلة.. بالتأكيد كان القمر الفضي في الخارج يشع على الغابة الكثيفة المتحركة. اللعنة عليه!

فتحت الخزانة.. فإذا فيها بيجاما حريرية مزدانة بالدانتيل. نزعت ثيابها وكان جسدها مشدوداً كرفاص مضغوط، ينتظر الانطلاق.. ولكن الحرير كان ناعماً بارداً على بشرتها العارية.

لقد كانت في أماكن غريبة كثيرة في حياتها الصغيرة.. لكن هذا المكان هو أغربها.. وعادت إلى السرير.

صديق أبيها.. وما أدراها أنه صديق والدها. ربما هو شخص مرتزق كغريغ، قاتل مأجور يحمل رموزاً أخلاقية ملتوية تصلح لغابة أكثر مما تصلح لعالم المدينة، كلندن..

تركت نفسها تنجرف فترة طويلة.. كان تفكيرها ضاجاً بذكريات ضبابية عن أبيها.

كان غريغ ستيرلنغ رجلاً لامعاً، ذا شخصية صلبة غريبة الأطوار.. كان عمله في الجيش بارزاً، مع ذلك كان دائماً متوتراً على شفا جرف ما بين الأصالة والتمرد.

الشيء نفسه انطبق على كل حياته، هذا ما باتت لويلا تفهمه الآن، بما فيه زواجه بأمها، ولدت لويلا من زواج بدأ يتحطم أصلاً.. ذكرياتها الطفولية تدور كلها حول المشاجرات التي كانت تدور بين والديها كل ليلة.

كانت في الخامسة من عمرها عندما انفصل عنهما أخيراً.. ترك

المايجور ستيرلنغ زوجته وطفلته، والجيش، ليتطوع في ثورة أفريقية كمرتزق.

تدمرت حياة لويلا . بدأت مشاكلها كلها في الواقع منذ تلك النقطة. . مع أنها مشاكل لم تتجسد حتى وقت لاحق. لم ترَ أباها مدة ثماني سنوات، علماً أنه كان يراسلها أو يبعث إليها الهدايا ليلة الميلاد من زاوية بعيدة في هذه الأرض. مع الوقت تأثرت حياة لويلا بالمحاولات اليائسة للعيش بطريقة طبيعية، وهذا ما يعاني منه الكثير من الأطفال. . صادقت فلورنس، أمها، رجلين بشكل متوال، كانت لويلا ببراءة الأطفال تناديهما «دادي» مع أنها في قرارة نفسها الصغيرة عرفت أنهما ليسا والديها.

وما إن بلغت الثالثة عشرة حتى عاد غريغ يحاول جمع شتات زواجه بفلورانس.

حتى في هذه اللحظات الحرجة التي تعيشها أرتسمت ابتسامة ملتوية على فمها المكتنز لأنها تذكرت ذلك الفرح الذي أحست به. . يا الله! ما أشد ما كانت سعادتها بعودة أبيها. . كان رجوعه رداً على آلاف الأحلام.

لكن ما هي غير ستة أشهر حتى انقلب الفرح ألماً، وعادت الشجارات والمجادلات تتجدد بوحشية فاقت ما كانت عليه قبل ثماني سنوات. . وما إن عاد الشجار حتى عرفت لويلا خوفاً كان قد نما في السنوات الثمانية المنصرمة.

في ذاك الوقت تفجر عنادها وعصيانها. . ومن هذا العصيان الفرار من المنزل أو كسر نوافذ الناس، وهناك ما هو أسوأ من ذلك بكثير. . وكأنها تعمدت أن تجعل من حياتهما جحيماً لا يطاق.

أوه. . لقد ابتعد غريغ وفلورنس أميالاً عن بعضهما بعضاً خلال سنوات الفراق. . وهذا ما حال دون تفاهمهما. . ولكن لويلا عرفت في أعماق نفسها أن تصرفاتها المجنونة، ساعدت كثيراً في تحطيم أية فرصة كانت لوالديها ولزواجهما.

بعد سنتين. وقبل عيد مولدها الخامس عشر انتهى كل شيء. غادر غريغ انكلترا مجدداً ليصبح مستشاراً عسكرياً لدولة أفريقية. . قبل رحيلها ودعها:

ـ انتهت انكلترا بالنسبة لي. . وداعاً لويلا، وحظاً سعيداً حبيبتي

وكان هذا كل شيء.

كان الإحساس المسيطر عليها وقتذاك هو عدم التصديق. لا يمكن لهذا أن يحدث مجدداً لكنه حدث في هذه المرة نهائياً. . بعد ذلك أصبح كل شيء عديم الأهمية عندها. وعندما تزوجت أمها وهي في أواخر الثلاثين من عمرها وأنجبت لزوجها الجديد طفلين راقبت لويلا كل هذا بابتسامة ساخرة.

ساعدها رفاق السوء الذين اختارتهم في سوء تصرفاتها. انضمت إلى حركة متهورة معادية للحرب. وهي ضربة موجهة تماماً إلى والدها. . وتحركت في دائرة من الأصدقاء كانوا في معظم الأوقات أفضل بقليل من المجرمين.

انزلقت من الجنوح إلى الجنون، الذي أصبح أكبر من أن تستطيع أمها التعامل معه. . كان زوج أمها هاريس ووريل أكثر من سعيد حينما تركت لويلا المنزل لتعيش في غرفة استأجرتها منذ عيد مولدها السادس عشر. . فكان أن عاشت لويلا كما يحلو لها.

اضجعت بقلق على جنبها الأيسر، تحتضن كتفيها المرتجفتين، تنظر أمامها بعينين سوداوين لا تريان شيئاً. عمَّ الذعر قلبها ما إن فكرت في الساعات القادمة. . ليس هذا المكان لها. . ايليون ذو العينين الرماديتين كابوس يجب أن تستيقظ منه. . إن أرادت التخلي عن إدمانها فستفعل هذا بطريقتها الخاصة، وليس بناء على شروط شخص آخر.

لكنها لم تسمع قط بأن أحداً تخلى بنفسه عن المخدر. . حتى باتريك، الذي أعطاها أول جرعة، لم يتمكن من الخلاص.

الذكي باتريك. . طالما كان منكباً على توزيع المخدرات ومصمماً

www.liilas.com

على جني أكبر قدر ممكن من المال.. كان همه أن يتأكد من أن الآخرين يدمنون إلى ما لا نهاية.. مع ذلك أطبق المخدر قبضته على خناقه. ولكن باتريك في الوقت الحالي في السجن، وسيظلّ مدة طويلة.

«سيقتلك المخدر».. هزت رأسها تبعد الفكرة عنه.. إنها بحاجة للنوم وإلى استعادة قوتها.. غداً ستكون في حالة يرثى لها، وستحتاج إلى جميع قواها غداً.. في الغد ستهرب من هنا مهما كلف الأمر، ستعود إلى لندن بطريقة ما.

نعب بوم في الليل الفسيح، فمدت يدها المرتجفة لتطفىء المصباح بغية النوم.

تقيأت أكثر من مرة خلال الليل، كانت تحس أن أحشائها تنقلب من الداخل إلى الخارج، ولكنها بين نوبات القيء، كانت تتمكن من النوم نوماً قلقاً.

منذ اعتادت على الهيروبين، خلا نومها من الأحلام وأصبح كنوم الموتى. لكن الكوابيس الليلة زارتها.. رأت في منامها أرواحاً شريرة مرعبة وجوهها مخيفة ظلت تلاحقها في ممرات لا نهاية لها تحمل في أيديها حقنة كانت تعرف أنها تعني موتها. أخيراً علقت في زاوية.. ودخلت الإبرة القاتلة في عنقها..

استيقظت مذعورة، واجفة القلب، كانت يدان قويتان تمسكان كتفيها، أدركت أن ايليون جالس على سريرها، يناديها:

ـ لويلا.. لا بأس عليك.. هوني عليك.

ـ قلبي..

أحست أن صدرها مضغوط بقيود حديدية.. لم تشعر قط بأن نبضاتها تتسارع بهذا الجنون، وهذا ما زادها ذعراً. رددت ثانية:

ـ قلبي.. أظنني سأصاب بنوبة قلبية!

وضع يده الدافئة على بشرتها الباردة الرطبة، يتحسس ضربات القلب. وهز رأسه:

ـ سريعة.. لكنها غير خطرة. من المتوقع أن يحدث هذا.. خاصة في البداية.. لا تخافي ليست خطرة..

أحست بيده تلامس جبينها الناضح عرقاً:

ـ تنفسي بعمق وثبات.. هذا يخفف ضربات القلب.

أطاعته، كان جسدها يرتعش كقلب عصفور واقع في الفخ.

سأل: «تحسنت؟».

ـ قليلاً.

أدركت أن أصابعها تشد على عضلات ذراعه، وكأنما تسعى إلى نشدان الراحة. تركت ذراعه بخجل.

ـ آسفة.. هل خدشتك؟

أرجع شعرها المبلل عن جبينها.

ـ سأحيا.. كان كابوساً سيئاً بلا شك.

ارتجفت: «بل مرعباً».

ـ سترين أحلاماً كثيرةً مخيفةً.. لقد أوقفت المخدرات عنك الحلم مدة طويلة، لكن الأحلام ظلت تتراكم وها هي الآن تريد الخروج من مخبئها.

قالت متوسلة: «لا أريد أن أرى كابوساً بعد الآن».

ـ أتريدين أن أضيء النور؟

ـ لا.. هل صرخت؟

بدأت ضربات قلبها تهدأ.. فابتسم لها:

ـ بل كنت تئنين كقطة صغيرة.

قبل أن تفهم ماذا يفعل سحب الغطاء جانباً واندس قربها.

ـ البرد قارس، ابتعدي قليلاً.

تصلبت في لحظة ذعر، ثم حاولت التراجع أبعد قدر ممكن، فسألها:

ـ أتتصورين أنني أحترق شوقاً لك؟ لا تخافي.. فبقائي هنا سيوفر عليّ المجيء من غرفتي عند الكابوس التالي.

www.liilas.com

ما زالت ترتجف بطريقة لا إرادية وما زالت نبضات قلبها تتسارع.

ـ لا تفكر أفكاراً معينة.

ـ أي نوع من الأفكار؟

قال لها ساخراً:

ـ أتتوقعين مني وضع سيف بيننا؟ ستشعرين بالدفء الآن أنت باردة كالطين.

عندما تلاشت الصدمة شعرت بطول جسده أمامها، وبقوة ذراعيه حولها.. استطاعت أن تحس بضربات قلبه.. هذا عالم جديد عليها.. أو على الأقل، غير مألوف لها.

انسحب الخوف.. وهدأ تنفسها.. وأحست براحة كبيرة لأنه يحتضنها.. وهذا ما لم تشعر به منذ زمن بعيد.. إنه الدفء والحماية. استرخت ببطء بين ذراعيه وأخذ التشنج في جسدها النحيل يذوب تدريجياً.

تمتم بصوت عذب: «هكذا أفضل.. ما كان حلمك؟»

ـ لا.. لا شيء مهم.

ـ لكنه كان مهماً لأنه أيقظك صارخة.

ـ أشياء متشوشة.. لا أدري.. رأيت شخصاً ما يطاردني حاملاً بيده حقنة.. كان يريد قتلي.

قال عن غير تردد: تعبير مباشر عن خوفك من المخدرات. يصرخ بك عقلك الباطني أن تنقذي نفسك.. هل أنت أفضل حالاً الآن؟

همست: «أجل».

ـ اعتدت على فكرة وجودي معك؟

ـ أجل.. لا!

ـ يعجبني هذا: أجل.. لا.

وأكمل:

ـ رد فعل أنثوي بالكامل. لا أظنك شاركت أحداً الفراش من قبل

لويلا.

ـ لست طفلة.

ـ بل طفلة، تقوم بأشياء مجنونة.. كالإدمان مثلاً.. طفلة تحلم بالكوابيس، ويجب أن يواسيها أحد.

وضع رأسها على ذراعه، فأغمضت عينيها وعندئذ سمعت خفقات قلبه تضج بثبات وقوة.

سمعت صوته الأجش يقول لها:

ـ نامي «لويلا».. لن تحلمي بأي كابوس بعد الليلة. أعدك.

تلظت بنيران أفكارها.. ماذا يظن ايليون أوكلاند بها حقاً؟ لا شك أنه يحتقرها كل الاحتقار. لن يفهمها أبداً.. ولن يفهم كيف انتهى بها الأمر إلى الإدمان. إنه أكبر منها بعشر سنوات.. وهو من جيل ومجتمع بعيدان كل البعد عنها.. الواضح أنه ناجح وثري.. والواضح أنه يمتلك تلك الصفة: «السلطة» وما هي بالنسبة له أكثر من فتاة شاذة، فاشلة، عاجزة، مكسورة الجناح..

يا الله ما أشدّ شعورها بالوحدة! إلى أين تسير؟ ماذا سيحدث لها؟

وراحت الدموع تتسلل من بين جفنيها المغمضين.

ولكنه لم يع تساقط دموعها أو ربما تجاهلها.

* * *

www.liilas.com

فراشة المحبة

٣ ـ نسيت الابتسام

لم تجد ايليون عندما استيقظت. جلست تشعر بالبؤس المطبق. كان رأسها يضج كمحرك وهي تمرر أصابعها في شعرها المتشابك.. كانت عيناها دامعتين وأنفها مبللاً، وثمة صرير شديد في صدرها كلما حاولت التنفس. وها هو الصداع المخيف يزداد حجماً مع الوقت.. بهر نور الخريف البرّاق المتسلل من النافذة عينيها بشكل مؤلم.

نهضت من السرير وأمسكت روباً كان خلف الباب ثم شقت طريقها إلى الحمام.. أحست كأنها تتحرك عبر ضباب كثيف.

هل نامت حقاً قرب ايليون أوكلاند طوال الليل؟

تعثرت.. آه.. اللعنة.. إنها أسوأ حالاً مما تظن.. كانت عضلاتها ترتجف ومعدتها الفارغة تتلوى.

وجدت في الحمام امرأة متوسطة العمر ترتدي ميدعة، وتلف شريط المكنسة الكهربائية.. التفتت إلى لويلا مبتسمة:

ـ مرحباً عزيزتي.. كيف تشعرين الآن؟

قالت لويلا بصوت أجش: «كميت أعيد تسخينه. أين ايليون؟»

ـ السيد أوكلاند في الاسطبلات، إنه مع الجياد منذ الخامسة صباحاً.

كررت لويلا: «في الاسطبلات».

ـ أجل.. في المزرعة.

ـ أهذا ما هو هذا المكان؟ مزرعة خيول؟ إنه ليس مؤسسة استشفاء إذن؟

ـ مؤسسة..؟ تعنين مستشفى الأمراض العقلية؟ لا.. ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟ أنت في «ميتكالف هال» عزيزتي، أكبر مزارع الخيول في انكلترا.

ابتلعت لويلا ريقها تستوعب ما تسمع: «متى.. متى يعود؟»

ـ بعد ساعة على ما أظن.

هذا وقت كاف للابتعاد عن هذا السجن.

ـ كم نبعد عن.. لندن؟

عبست المرأة: «لا أستطيع التحديد بالضبط.. إذ نذهب عادة بالباص. ولكن لا تقلقي على هذا.. يجب أن أحضر لك فطورك».

تجاوزت لويلا: هناك ما يكفي من الماء الساخن، ولقد وضعت لك مناشف نظيفة.. ولديك كل ما تحتاجين إليه. ثيابك في الغسيل، ولكنك تعرفين أن هناك ثياب جديدة في غرفتك.

ـ انتظري.. أتعرفين من أنا؟

ابتسمت المرأة: «أنت الآنسة ستيرلنغ.. من لندن.. عفواً. أنا سالي جونز، يعمل زوجي، فيليب في المزرعة، وأنا أقوم بدور مدبرة المنزل عند السيد ايليون».

قالت لويلا بإلحاح: «سيدة جونز.. يجب أن تساعديني».

ردت سالي جونز بلطف: «وماذا تطلبين؟»

ـ أود مغادرة هذا المكان هذا الصباح.. يجب أن أغادر.. الباص الذي ذكرته متى يرحل؟

ردت السيدة المتوسطة العمر فوراً:

ـ من القرية، لكنها تبعد أربعة أميال، ولا ينطلق الباص إلا أيام الثلاثاء، والخميس. استحمي عزيزتي، وما إن تنتهي حتى تجدي فطورك جاهزاً.

قالت لويلا بإلحاح: «لكن، عليّ الرحيل، لست هنا بملء إرادتي!»

ردت مدبرة المنزل بلطف: «لا داعي إلى هذا القول.. أعرف عنك ما

www.liilas.com

يجعلني أقول إنك هنا من أجل مصلحتك. إن ما تحتاجين إليه هو هواء الريف العليل والطعام الريفي اللذيذ».

ـ أرجوك..

ـ ستشعرين بأنك أفضل حالاً بعد الحمام.

تركت المرأة تدفعها بلطف إلى الحمام المكسو بالأبيض، لا شك أن ايليون استخدم بلهاء القرية! اللعنة عليه لأنه تطفل وتدخل بحياتها.

جلست على حافة المغطس تبكي بصمت من الألم في معدتها بمقدار ما تبكي من الإحباط.. إنها ضعيفة عاجزة كطفلة.

يا الله! إنها بحاجة إلى أي مسكن مهما يكن. تذكرت كيف بعثر ايليون المسحوق الأبيض الثمين على العشب.. وتأوهت.

بعد بضع دقائق، جرّت نفسها من تحت المياه، ووقفت بلا حراك تحت إبر الماء الساخن الحادة. انتابتها داخل المربع المليء ببخار الماء نوبة عطاس حادة، وفيما كانت تغسل شعرها اضطرت للانطواء، تحاول التقيؤ ولكن لم يكن هناك فائدة.

خرجت لويلا من تحت الدوش، وبدأت تجفف نفسها. أقسمت بأنها ستهرب من هنا اليوم.. إنها تريد الابتعاد عن هذه المهانة وعن هذه المعاناة.. سوف تجد من يقلها إلى القرية.. ما زالت تملك بضع مئات من الجنيهات في حسابها المصرفي، وهي آخر ما تبقى من مدخراتها يوم كانت صحافية في «السيتي نيوز». ستجد للمصرف فرعاً وتسحب ما يكفي من مال لتستقل ذلك الباص. ستفعل هذا بطريقة ما، حتى لو عنى ذلك طعن السيد ايليون بأحد السيفين المعلقين على الجدار.

انعكست صورتها في المرآة الطويلة فراحت تتأمل جسدها الشاحب والنحيل.. في الصيف كانت بشرتها سمراء أما وزنها فكان يزيد عن الآن خمسة عشر باوناً على الأقل.. ولكن من يتعاطى المخدرات لا يحلم..

لفت نفسها بالمنشفة الكبيرة تنظر إلى صورتها.. أحاطت غمامة سوداء بوجه بيضاوي ذي جمال هش.. كانت نظرة العناد في عينيها

www.liilas.com

السوداوين، وانحناءة فمها العريض المكتنز الدليل على قوتها الداخلية.

كانت عظام وجنتيها البارزة من خلال نحولها فاتنة وهذا هو حال عنقها وعظمتي كتفيها الدقيقتين.. جسمها رشيق جميل. طالما أعجب بها الرجال، وبساقيها المديدتين كساقي راقصة. ولكنها لم تصدق قط أنها جميلة، ففي أعماقها شعور عميق بأنها قبيحة وبأن ما من رجل يحبها ليبقى معها إلى الأبد.

جلست أمام المرآة، تحس وكأن رفاصاً فولاذياً يتقلص في داخلها.. شعرت بالإغراء يدفعها إلى تحطيم ما تراه أمام المرآة، ولكن ما لبث أن تلاشى هذا الإحساس.

فتحت وعاء فيه كريم أساس للوجه.. إنه أحد تلك التركيبات العلمية الزائفة الغالية الثمن. لا شك أن ايليون معتاد على نساء متطلبات. وفيما كانت تدلك بشرتها بالكريم، رأت ظلالاً سوداء تحت عينيها ووجدت أن بشرتها فقدت ذلك الوميض اللؤلؤي الذي تضفيه العافية. كانت الآن جافة وكأنها أرض ميتة.

بحثت في الأدراج بتوتر وتصلب فرمت ما لا تريده إلى الأرض ليلتقطه سواها.. بعد نصف ساعة ستكون في طريق العودة إلى منزلها.

وجدت كنزة صوفية بيضاء جميلة، وجينزاً رمادياً قاتماً بناسبها.. وهناك حذاء من الجلد الناعم لا يشبه أبداً أي حذاء تملكه في لندن.. ولكن، لا أثر للمال الذي كان في ملابسها يوم أمس.

كيف ستتمكن من العودة إلى لندن بدون مال؟ تصاعدت موجات غضب إلى أعماقها. توجهت إلى المطبخ، تشد الكنزة السميكة الناعمة فوق وركيها النحيلين. أثارت رائحة القهوة واللحم المجفف شهيتها. كانت السيدة جونز تحضر صينية، ولكن لويلا بدت عدائية.

ـ أين مالي؟ المال الذي كان في ثيابي.. أين هو؟

قالت مدبرة المنزل بهدوء:

ـ في مكان آمن عزيزتي.. لا تحتاجين إليه هنا..

ـ أعطني إياه!

بدا في العينين الودودتين أسف حقيقي:

ـ آسفة حبيبتي.. لقد ترك السيد ايليون تعليمات صارمة بألا يبقى معك مال.

صاحت بوحشية:

ـ أنت سارقة.. وسيدك خاطف!

قالت المرأة مبتسمة، وكأن الفكرة خطرت على بالها للتو:

ـ قد تكونين على حق.. في كلا الاتهامين، لماذا لا تتناولين فطورك قرب النار في غرفة الجلوس؟ فهناك يطالعك منظر الأراضي الجميل.

حملت الصينية التي كان فوقها طبق من اللحم المجفف المقلي مع الفطر البرّي وإبريق من القهوة، قدمت الصينية إلى لويلا ولكن الغثيان تصاعد من جديد.. اللعنة عليهم جميعاً! شهقت بغضب ثم انتزعت الصينية ورمتها في المطبخ.

تحطمت محتويات الصينية على الأرض، فصاحت السيدة جونز صيحة غضب:

ـ يا إلهي.. لا! لست مضطرة لهذا يا فتاة!

انحنت أمام الحطام، تتفجع على الآنية المكسورة.

قطع صوت ايليون العميق الصمت المشدود:

ـ اتركيها سالي.. سأنظفها بنفسي.

كان واقفاً في الباب متجهماً.. يداه في جيبي سترة سميكة من جلد الغنم، كان يرتدي سروالاً من الجينز وينتعل حذاء لركوب الخيل. لو كان هنا قبل لحظة لرمت الصينية عليه!

نظر إلى تعابير وجه لويلا المرتجفة، ثم ساعد مدبرة المنزل على الوقوف قبل أن يقول بهدوء:

ـ ليست الآنسة ستيرلنغ على ما يرام هذا الصباح.. كان عليّ أن أنتظر حتى تستيقظ.. من الأفضل تركنا بمفردنا بقية اليوم.

كانت المرأة منكدرة حقاً:

ـ هذا أفضل.

لم تنظر إلى لويلا وهي ترمي القطع المكسورة في سلة الأقذار، وقالت بلهجة ذات مغزى:

ـ أرجو أن تكون عارفاً بما تأخذ على عاتقك!

رد بجفاء: «لقد تعلمت كيف أتعامل مع كل شيء. لم تقصد ما فعلت، وستعتذر عندما تصبح أفضل حالاً».

كانت ساقا لويلا أضعف من أن تحملاها.. فجلست على طاولة المطبخ، تدفن وجهها بيديها فلم تنتبه إلى أن ايليون يرافق السيدة جونز إلى خارج المنزل.. إنها بحاجة إلى المخدرات الآن! لا شيء غيرها قد يوقف هذا الارتجاف المخيف، وهذه الآلام الشديدة.

سمعت هدير سيارة صغيرة، ثم وقع خطواته عند الباب. أمسكت يد قوية ذراعها، تشدها إلى قدميها، في عينيه تصميم حيوان ذكرها بعيني ذئب شاهدته يوماً في حديقة حيوان كان فيهما الجمال الجامد البارد ذاته..

قال بحدة: «ما كان عليك الانتقام من سالي.. إنها لا تستحق نوبات غضبك».

رفعت بصرها إليه، تسأل مختنقة:

ـ لماذا تفعل بي هذا؟ لماذا لا تتركني وشأني؟

ـ لأنك تستحقين المساعدة. لا أظنك تشعرين بالحر؟

تأوهت: «أنا متألمة.. أريد قرص أسبرين.. أرجوك.. أعطني أي شيء!»

كانت السخرية في صوته قاطعة:

ـ أريد.. أحتاج.. يجب أن أحصل.. لا أستطيع دون.. كل ما تقومين به هو الطلب.. أليس لديك مصادر خاصة بك؟

ـ ليست جريمة أن أطلب مسكناً للألم! أتريدني أن أتعذب؟ فلتتعلم

www.liilas.com

لويلا الشريرة درسها؟

ضغطت بأصابعها على صدغيها..

قال لها: «ستتصلين بأمك الآن. ستقولين لها إنك في عطلة مدة خمسة عشر يوماً مع أصدقاء. ثم أعطيها هذا الرقم إن سألت».

دوّن رقماً على ورقة، ثم رفع سماعة الهاتف عن الجدار. مد يده إليها فشعرت بأنها تغرق في تلك النظرة الآمرة.

ـ قولي ما تشائين.. ولكن إن أردت قول شيء درامي ففكري مرتين في الأمر، لأنني ساعتئذ سأضطر إلى إعلان القصة كلها. لا تعرف أمك شيئاً عن إدمانك، قد لا يكون لك علاقة وثيقة بها، ولكنني لا أظنك تريدين أن تعرف أنك مدمنة. صحيح؟

أخذت لويلا الهاتف بحذر.. إنه على حق.. ستبذل المستحيل لمنع أمها من معرفة الأمر.. لكن ما تشعر به الآن أمر مخيف..

طلبت رقم أمها مرتجفة.. أيجب أن تطلق توسلاً للمساعدة؟ أو تحاول إيصال رسالة؟ فيما كانت تصغي لرنين الهاتف في الجهة الأخرى، خفق قلبها.

لكن زوج أمها هو من رد عليها. هوت كتفاها قليلاً.. لم تتمكن قط من أن تطلب منه شيئاً.. ولن تطلبه الآن..

قالت بصوت بارد:

ـ هاريس.. أنا لويلا.. أمي هنا؟

رد بصوت خال من الحرارة: «لقد خرجت.. ما بك لويلا؟»

التقت عيناها بعيني ايليون العديمتي الشفقة، فأحست بقوة الإكراه فيهما.. أجابت: «أردت أن أقول لها إنني في أسكتلندة. في إجازة، مع أصدقاء».

حثها على إكمال ما تريد قوله، بنفاد صبر: «أجل؟»

ـ لن أعود قبل.. أسبوعين.

أعطته الرقم:

ـ أطلب منها أن تتصل بي عندما تتاح لها الفرصة.. أرجوك.

قال هاريس بغير حماس:

ـ سأقول لها.. أتحتاجين إلى مال، أو إلى أي شيء؟

ـ لا.. أنا على ما يرام.

ـ عظيم.. هل من شيء آخر؟

كان وداع هاريس ووريل مهيناً في اختصاره.. ما إن انقطع الخط حتى تهاوت إلى الخلف يائسة.. فقال ايليون وهو يعيد السماعة إلى مكانها:

ـ لا يبدو مهتماً بك.

ردت باختصار: «لست على وفاق معه.. يعتقد أنني ذات تأثير مدمر».

تفرس فيها:

ـ هذا تقريباً صحيح. كنت حكيمة لأنك لم تقولي له شيئاً غبياً. إنها فرصتك الوحيدة لإنقاذ نفسك.

قالت ساخرة: «ويا لها من طريقة لإنقاذي؟ السجن والعذاب».

ـ لو شعرت أنك مشلولة العاطفة وأن سبب إدمانك ضعف الشخصية لما فعلت هذا.. لكنني لا أظنك شخصية ضعيفة أبداً.

في عينيه بريق ذهبي ولمحة دفء في جليد قطبي:

ـ أعتقد أن إدمانك جاء وليد صدفة.. شيء ما كان يجب أن يحدث.. تعالي، أنت بحاجة إلى هواء نقي.

رفع كنزة صوفية سميكة من وراء باب المطبخ، ورماها لها.

ـ ارتدي هذه.. الجو بارد في الخارج.

ارتدتها بتمرد. كانت واسعة كثيراً. فبدت ضائعة فيها كطفلة متشردة.. ضحك على تعابير وجهها، لكن، دون أن تظهر ملامح الشفقة في عيني الذئب.

ـ إنه يوم خريفي جميل.. فلنتطلق.

أخرجها إلى الهواء النقي البارد متجاهلاً مقاومتها. كانت المناظر

www.liilas.com

حولها تخطف الألباب. . شاهدت هذا رغم بؤسها. . يرتفع المنزل في منتصف الطريق صعوداً إلى تلة تقبع وسط مرج كبير. بعثر هواء تشرين الأول أوراق الشجر على مختلف أحجامها وألوانها. . كان لكل شجرة لونها الخاص: اللبلاب، الزان، السنديان، القبقب، وثمة رماح خضراء دكناء متفرقة لأشجار السرو الصنوبرية الباسقة.

في الجهة السفلى امتدت الأشجار حتى الوادي. كان أقرب مكان سكن استطاعت رؤيته، هو مزرعة تقع على عدة أميال. تصاعد الدخان الأبيض من مدخنة المنزل.

قال لها ايلبون وعيناه حالمتان وهو يراقب وجهها:

ـ هذه غابة «دار كراسنغ وود» عمرها ثلاثة عشر قرناً. . أتعجبك؟

ردت بحزن: رائعة. . ثمة مناظر كثيرة أمامك وأعمال أكثر إن صدف أن كنت سنجاباً. أخبرتني تلك المرأة شيئاً عن مزرعة استيلاد الجياد. . هل هي لك؟

لف وشاحاً صوفياً حول عنقه ثم تكلم بصوت خشن:

ـ أجل. . أعمل على توليد خيول سباق. . بحق الله! هل نسيت ما هو الابتسام، لويلا؟ وكأن شخصاً ما خاط خديك من الداخل.

قالت بحدة، ورأسها يؤلمها:

ـ أخشى ألا أكون إحدى أفراس الاستيلاد عندك. لا أستطيع تغيير مزاجي بناء على طلبك.

رد ساخراً، وعيناه تتأملان جسدها النحيل:

ـ لن أحلم أن يكون لي نسل منك. قد يكون لجسدك خطوط جميلة، ولكنك لا تملكين المزاجية.

دفعها بطريقة أو أخرى لتسير معه في الممر المفضي إلى غابة «دار كراسنغ وود». أردف يقول بصراحة:

ـ أريد أن تعرفي شيئاً لويلا. . كان لي شقيق عزيز على قلبي، يصغرني بسنة تقريباً وقع ضحية إدمان الهيروبين. ولكن درجة إدمانه كانت

أعمق مما تتصورين. . مع ذلك تخلص منه. . كنت معه عندما مر بما تمرين به من تجربة الآن. . إذن، هذا ليس بأمر جديد عليّ.

سألت بفظاظة: وهل كنت مضطراً إلى اختطافه أيضاً؟

ـ لا. . بل جاء بملء إرادته.

سألت بفضول رغماً عنها: «ماذا حصل له؟»

لم تتغير تعابير وجهه: «إنه ميت الآن».

ـ آه. . عظيم. .

أرسلت الريح شعرها الأسود الطويل ليلوح حول وجهها، وكانت عيناها براقتين. أضافت: «يا للنجاح الباهر. . أمن المفترض أن يكون هذا مصيري؟»

نظر إليها والابتسامة في عينيه لا على فمه:

ـ لم تقتله المعالجة من الإدمان بل شيء آخر

سخرت منه عن غير تعاطف أو اهتمام بمعاناة أي إنسان سوى معاناتها. . ما هي إلا بضع دقائق حتى دخلا إلى عمق الغابة المظلم وهناك غاصا حتى الكاحلين في سجادة من أوراق الشجر الحمراء والذهبية والبنية. . كان المكان صامتاً ساكناً، ليس فيه ما يتحرك.

راح الجمال الذي صممت على تجاهله يغوص في نفسها، جالباً معه السكينة. . دلكت وجهها المحترق وهي تشعر فجأة بالسعادة لأنها موجودة خارج المنزل. .

أخيراً تنهدت:

ـ أنا آسفة. . لم أقصد أن أكون غير مبالية بالنسبة لموت أخيك.

تحرك برشاقة حيوان برّي لا هم عنده. كان جسده ليناً، مطواعاً، وقوياً.

ـ انسي الأمر.

كانت ضعيفة بشكل لا يصدق. أحست أنه مضطر لكبح خطواته لئلا يرهقها. . لا شك أنه بارع مع الخيل، فهي ترى ما في ساقيه من قوة

www.liilas.com

الرجال. وما في يديه من لطف ولين.. إن السيطرة والحساسية مزيج نادر.

قالت: «بما أنك صديق مقرب من أبي، فهذا يعني أنك عشت في الخارج كثيراً.. لأنه لم يستقر كثيراً في انكلترا».

رد بطريقة غير مباشرة: «لا تعتمد الصداقة على المدة الطويلة التي يقضيها المرء في صحبة شخص آخر. إن كانت صداقة حقيقية تدم بغض النظر عن المسافة والزمن. مثلاً: نادراً ما غبت أنت عن أفكار والدك، مع أنكما نادراً ما اجتمعتما.. كان يتكلم عنك كثيراً».

سألت بريبة: «صحيح؟ ماذا كان يقول عني؟»

نظر إليها:

- كان يتساءل عما إن كنت قد تجاوزت ألم ما فعله هو وأمك بك.

ردت بصراحة: «لا يتجاوز المرء أبداً الألم الذي يتركه بيت مهدم.. ماذا قال بعد عني؟ أقال إنني ساعدت في تحطيم العائلة؟»

رفع حاجبه: «ولماذا يلومك أحد على هذا؟ كانت المسألة فشل زواج شخصين راشدين».

تمتمت: «لكنني ساهمت في هذا».

بدا متسلياً: كيف؟ بإساءة السلوك؟ هكذا هم جميع المراهقين لويلا.. وما ذلك بجريمة.

ركلت بقلق أوراق شجر ميتة تحت قدمها.

- كنت أكثر من صعبة المراس، كنت مجنونة! لم أقم قط بعمل صائب ولم أنجُ يوماً من المتاعب.. لو لم أكن ما كنت عليه لاستطاعا حل مشاكلهما لذا ترى أن الذنب كان ذنبي جزئياً.

لم تتوقع أن يتلامس جسداهما عندما التفت ذراعه حول خصرها. رفعت نظرها إلى التحدي الدافىء في فمه المبتسم.

- غلطتك، غلطتي، غلطتهما.. أنت لوّامة كبيرة.

أذاب دعم تلك اليد القوية حول ظهرها شيئاً في داخلها..

أضاف: أهذه هي الدنيا بحسب مفهوم لويلا ستيرلنغ؟ إن كل شيء في كل مكان غلطة شخص ما؟

هزت كتفيها بارتباك: «هذا ما أشعر به.. كيف.. كيف اكتشفت أمري؟ أعني مسألة الإدمان؟»

- ذهبت لأراك في لندن، بعد ستة أسابيع على موت غريغ.. لم يكن معي غير عنوان عملك في «السيتي نيوز» وهناك التقيت امرأة اسمها هيستر بارسلي وهي من أخبرتني أنك استقلت كما أخبرتني أنها تشك في أنك أصبحت مدمنة.

أشاحت بوجهها وقد احترقت وجنتاها: هكذا إذن.

كان عملها كصحفية قصير الأمد. لقد قدمت مقالة غاضبة لصحيفة رائدة اسمها «سيتي نيوز» وهي في السادسة عشرة من عمرها.. يومذاك أعجبوا بها. وبعد ستة أشهر انضمت إلى مراسليهم ولكنها كانت مراسلة صغيرة لذا لم يعطوها إلا أجراً زهيداً.

تمكنت بطريقة ما من العيش في المشاكل التي يفرضها العمل في صحيفة لا تستطيع دوماً إيفاء التزاماتها ودفع أجرة محرريها.

بعد سنتين، أظهر عملها في الصحيفة دلائل النجاح، فتحولت الصحيفة من صحيفة تقليدية رائدة إلى صحيفة شابة حية وكان أن اكتسبت لويلا ستيرلنغ شهرة رائعة في كافة مقالاتها وتحقيقاتها الجريئة. ومن المدهش أن مقالاتها بيعت لدور نشر بغية نشرها في أكبر الصحف البريطانية.

متى كان ذلك؟ منذ زمن بعيد. ولكن سرعان ما اندثر نجاحها الباهر. كانت هيستر بارسلي أقرب صديقة لها، وكانت من أبرز الناس ممن حاولوا رمي طوق النجاة لها عندما بدأت تتعاطى المخدرات. لكن هذا لم يساعدها لأنها كانت قد تمادت كثيراً.

سألته: «لماذا أردت رؤيتي؟»

قال بلطف: «أردت أن أقدم إليك عزائي أولاً وأن أمد يد المساعدة.

www.liilas.com

أحـــت أن ذلك نوع من الالتزام لأبيك.. فكلما تحدّث عنك كان يقول الشيء نفسه: سأحاول أن أفهم هذه الفتاة يوماً».

كانت متكئة عليه وكان الضعف يلصق جسمها إليه.. قالت بصوت خفيض جاف، رافضة الاعتراف بأنها تأثرت بكلامه.

ـ لكنه لم يفعل هذا قط بل سعى إلى حتفه.

كان صوته الدافىء كالمداعبة غير المتوقعة من رجل، رجل كهذا:

ـ هذا ما لا تستطيعين لومه عليه.. لم تكن غلطته أن تحطمت طائرته. لكن، ثمة سبب آخر دفعني للمجيء إلى لندن، محض أناني.

التفت أصابعه بشدة حول خصرها النحيل، وهو يبتسم لها.

ـ أردت مقابلتك، لأن كل ما عرفته عنك أثار اهتمامي. علمت أن في شخصية لويلا ستيرلنغ سحراً وتناقضاً.. المتمردة المراهقة الجميلة التي أصبحت صحفية عظيمة.. نجمة صاعدة لا يمكن التنبؤ بشيء عنها.. هل تتابع الصعود أم تهوي؟ لم يكن أحد يملك أدنى فكرة.

قالت لويلا بسخرية مريرة: لقد هويت.. ووجدت لنفسك مدمنة مخدرات.. فما الذي جعلك تقرر القيام بدور المنقذ؟

بدأت تحس بالحمى.. لامست بشرة صدغيها المبتلّة بأصابع مرتجفة، وأضافت بوهن:

ـ لا شك أن هناك أكثر من «الالتزام» وراء كل هذا..

ـ ربما نعم، وربما لا، أنت قاسية جداً على نفسك لويلا.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أراك مقتنعة بأنك تافهة.. هل لديك فكرة عن الفرق بين «سوف» و «حتماً».

ـ ليس لدي فكرة.

ـ من يخشى ألا ينقذه أحد يقول: سوف أغرق.. ولن يساعدني أحد.. ومن هو مصمم على الموت يقول سأغرق حتماً، لن ينقذني أحد.. فأي منهما أنت؟

ابتعدت عنه، وارتدت تواجهه بوجه غاضب:

ـ أنت تهدر وقتك ايليون.. لن يجدي تحليلي نفسياً نفعاً. أنا لا أعني شيئاً لأحد، ولا أحد يعني لي شيئاً.. لماذا إذن لا تتركني أعود إلى حياتي الخاصة؟

قال متحدياً: «أتركك تتجهين إلى جهنم بطريقتك الخاصة؟»

ـ إذا كان هذا ما أريد.. أجل!

ـ عدنا إلى «أنا أريد».

واجهها بعدائية، كانت ساقاه منفرجتين ويداه في جيبي سترته.

ـ ستصبحين في العشرين من عمرك بعد بضعة أشهر لويلا. متى تكبرين؟

سخرت منه: «ومن أخبرك أنني سأبلغ العشرين؟»

جهّمت الكلمات وجهه الوسيم بغضب حقيقي.

ـ اللعنة عليك!

انعقدت أصابعه القوية في كنزتها، يشدها بعنف جعل أسنانها تصطك بألم.. أخافتها قسوته فهو أقوى منها بكثير.. كان وجهها أبيض كالثلج وهو ينظر إلى عينيها عن بعد إنشات..

قال بوحشية: «لا أريد أن أسمعك تتكلمين بهذه الطريقة مرة أخرى.. أبداً.. أنت لست تافهة! أنت ثمينة. ألا يمكنك فهم هذا؟»

همست: «أنت تؤلمني.. ولمن أنا ثمينة؟»

برقت عيناه لحظة، كأنه يريد أن يعرف أكلماتها تحد أم رجاء. ربما كانت ترغب أن يعانقها في تلك اللحظة، لكنها كانت مرتبكة بحيث لم تعرف ما تريد.. مع ذلك لم تتراجع عندما جذبها إليه مجدداً.. لم تستطع غير التعلق بعجز بكتفيه. إنه رجل كامل الحيوية يهاجم أحاسيسها، وها هي ذراعاه القويتان تسحقانها.

ردة فعلها كانت قوية إذ سرى الشوق في شرايينها كالنار في الهشيم، مفجراً معه مشاعر قوية. ارتجفت وهو يمرر أصابعه في شعرها الأسود

www.liilas.com

بقسوة. . فتأوهت باستسلام.

تراجع الهجوم ببطء. كانت ساقاها غير قادرتين على حملها، كادت تنهار من فرط الضعف.

همست: «لماذا فعلت هذا؟»

رد بجفاء: «ليتني أعرف».

أحست بتوتره ورأت الحرارة المتقدة في عينيه وهو ينظر إليها. . سحب نفساً بصعوبة، وقال يهز رأسه:

- ليست هذه هي الطريقة التي أردتها لتزهتك هذا الصباح. . تذكري فقط أنك جميلة، ذكية، وموهوبة لويلا. . وقد حان الوقت لتتصرفي وتتكلمي كامرأة لا كمراهقة مرتبكة.

نظرت إليه فاغرة فاها، مصدومة من حرارة عناقه، مرتجفة من الصدمة. كانت مشاعرها تتوق إليه. . جذبها بقوة ليرجعا أدراجهما من حيث أتيا.

- تعالي. . حان وقت العودة.

اتصلت والدتها في الخامسة من ذلك المساء. . مرر ايليون لها السماعة التي أخذتها بكلتا يديها المرتجفتين:

- أمي! يسرني سماع صوتك.

ردت أمها بلهجة حذرة:

- هذا إطراء لم أتوقعه. أخبرني هاريس أنك في عطلة في اسكتلندا؟

- أجل. . مع. . مع بعض الأصدقاء.

- أتمنى لك وقتاً طيباً.

ابتسمت بسخرية: لا يمكن التنبؤ بالطقس قليلاً. . هل أنت بخير أمي؟ كيف حال الولدين؟

- نحن جميعاً بخير. . ولكننا قلقون قليلاً عليك، إذ لا نسمع أخبارك هذه الأيام. . يجب أن تتصلي بنا دائماً يا حبيبتي.

- سأحاول. . سأحاول حقاً!

قالت فلورنس بقلق:

- تبدين متعبة قليلاً. . هل أنت واثقة أنك على ما يرام؟

تلاقت عينا لويلا بعيني ايليون. . فقالت وهي تفكر في النكتة الصغيرة:

- أعاني من بعض الزكام. . ولكن، قيل لي إنه لن يدوم طويلاً.

- اعتني بنفسك من أجل الله. . تعالي لرؤيتي لدى عودتك من اسكتلندة.

- سأفعل. . لا أدري متى. . لكنني سأفعل.

سمعت تمتمة مخنوقة، ثم عاد صوت أمها:

- يسأل هاريس متى تبدئين بالبحث عن وظيفة أخرى؟ على أي حال لا تقلقي الآن. . استمتعي بوقتك فقط.

قالت لويلا بجفاء: «سأحاول. . سأحاول».

* * *

www.liilas.com

٤ - أرجوك أعطني الدواء!

وضع ايليون الحرام حول كتفي لويلا، فتمسكت بصوفه الناعم بأصابع مرتجفة ثم رفعت بصرها إليه بعينين تصرخان بصمت للمساعدة، كانت غير قادرة على التحمل.

اعتمر الألم جسدها طوال النهار.. وجاء الغروب رافعاً معه قمة عوارض التوقف فأصبحت كتلة معقدة من الأعصاب المشدودة المتنافرة.

كان القمر بدراً، قرصاً ذهبياً في سماء سوداء مخملية. كانت لويلا محتبية فوق المقعد إلى جانب النافذة.. وكانت شعيرات جسمها متوترة وبشرتها كلها مشتعلة.

كانت ترتجف بعجز.. باردة كالثلج على الرغم من وجود النار التي تبعث الدفء في الغرفة. عليها أن تقاوم الإحساس بالارتعاش الذي لا يحتمل طوال الوقت، وعليها أن تشد على أسنانها لئلا ترتعش بنوبات الصدمة التي كانت تهزها.

عادت السيدة جونز لتحضر وجبة طعام ثم رحلت مجدداً. ولكن لويلا لم تتمكن من تناول فتات خبز، ولم يلمس ايليون الطعام أيضاً.

تحسس نبضها نصف دقيقة، ثم ركع أمامها ضيق العينين وقال بهدوء:

- إنه أسوأ وقت. تماسكي يا صغيرتي.. لن تمري بما هو أسوأ في ما بعد.

- لا أدري.. لا أدري.. كم أستطيع أن أتحمل..

- لن يدوم الأمر طويلاً.

كانت عيناه ثابتتين فحاولت التمسك بهما بعينيها. إن فيه قوة غريبة هائلة، يمكنها أن تتمسك بها في العاصفة العاتية التي يسببها انسحاب المخدر من دمها.. أبعدت يداه الشعر عن عينيها وتمتم:

- أشكر الله لأننا نعالج هذا في مهده.. بضعة أسابيع و..

وقف ليجلب إليها إبريقاً فيه عصير فاكهة:

- أنت بحاجة إلى احتساء الكثير من السوائل..

صب لها كأسها: «اشربي».

كان العصير كريهاً، إنه كالأسيد في فمها. ابتلعته بألم، ثم أعطته الكأس نصف ممتلئة.

- لا.. لا أستطيع.

- جرعة أخرى.. أرجوك حاولي.

ومضت عيناها بالدموع:

- ايليون.. دعني.. آخذ قرص «ميتادون» آخر.. أر.. أرجوك.. لن.. أطلب ثانية..

- الميتادون مخدر قد تدمنين عليه. إنه يحتوي على هيروين صناعي.

- أتوسل إليك.

لامس خدها مبتسماً:

- لا أستطيع إعطاءك إياه ببساطة، يجب أن يعطى بكميات موزونة في مستشفى.. التخلص من مخدر بمخدر آخر، يدوم أربعة أسابيع على الأقل.. إنها أفضل طريقة يا «لويلا». ستشعرين غداً بتحسن.. تذكري أن العوارض غير خطيرة بحد ذاتها. إن معظم معاناتك نفسية.

معظم معاناتك نفسية!

قالت مرتجفة وهي تبعد يديه عنها:

- أيها النذل.. تتكلم ببرودة ومنطق عما أحس به! تظن أنك قادر على فعل ما تشاء بي، تدللني متى شئت وتعاقبني متى شئت، وكأنني فأرة

www.liilas.com

تجارب بيضاء.. أنا لست فأرة! أنا امرأة، أنا لويلا ستيرلنغ.

جعلتها شدة الألم تبكي، وغاصت على ركبتيها فوق السجادة الفارسية، تبكي بحدة..

قال بصوت أجش ناعم حنون: «أنا آسف».

ركع أمامها ليضمها بين ذراعيه:

ـ ليس من السهل عليّ أن أراقبك وأنت تتألمين هكذا.

كان في جسده راحة كبيرة لها..

أضاف: «أكره هذا.. وهذا ما يجعلني أبدو وكأنني لا أهتم.. لكنني أهتم بل أهتم كثيراً».

تمتمت مولولة، تغرز أظافرها في معصمه:

ـ إذن، أعطني شيئاً.. أعطني قرص ميتادون.. نصف قرص.

رد وفمه على شعرها:

ـ سأعطيك بدءاً من الغد مسكناً للألم.. إنما ليس قبل الغد.

رفعت وجهها إليه: «أرجوك».

رأت للمرة الأولى في عينيه شفقة، فشبكت يديها غريزياً خلف عنقه القوي.. تهمس بإلحاح، وجهها يحترق ألماً:

ـ حباً بالله.. انظر إليّ ايليون.. ألا ترى كم أحتاج إلى الدواء؟

هز رأسه: «ما زال الرد «لا»».

تعلقت به أكثر.

ـ لا.. ليس كذلك.. ليس كذلك.. أعرف أنك تريد إعطائي شيئاً.. لن تتحمل رؤيتي وأنا على هذه الحال.

تمتم يداعب شعرها بخشونة:

ـ آه لويلا.. تماسكي.. لقد أبليت حسناً حتى الآن.

ـ أرجوك.

كانت الحاجة غامرة بحيث عجزت عن مقاومتها. يجب أن تدفعه إلى الإصغاء إليها، بأية طريقة.. ولكنها لا تملك ما تعطيه إياه غير نفسها.

ـ أرجوك.. حبيبي.. أرجوك. أنت تريدني أليس كذلك؟

ـ أجل..

كانت تراقب نفسها ببرود من مكان سحيق.. من مسافة بعيدة بعيدة، وكم كرهت نفسها لما تفعله. مع ذلك لم تستطع منع نفسها. كان وجهها شديد الاحمرار، فبدا صورة عن جمال متورد، نظرت إليه مرتعشة الشفتين.

قال آمراً، وأصابعه تحفر ذراعها بألم:

ـ لاتفعلي هذا بنفسك.. لست أنت من تتكلم.

قالت بشراسة: «أنت لا تعرفني.. كيف تقول ما أنا وما لست أنا؟»

عرفت بغريزة المرأة أنها تزعجه، وأنه رغم ثقته الزائدة برجولته وبنفسه، كان متأثراً بها إلى حد كبير..

همست: «أنت تريدني».

لا يهمها الآن أن تعلم أنها تحط من قدر نفسها، وأنها تمزق أي احترام يكنه لها.. إنها لا تريد غير دفعه إلى إعطائها ما تريد.

أحست به يتوتر بردة فعل مشبوبة.. بادلها العناق لحظات مشوشة، ثم فجأة أبعدها وأنفاسه متسارعة.

سألت وأنفاسها متسارعة قصيرة أيضاً:

ـ لماذا تراجعت؟

كان وجهه في غاية الوسامة، عكس وميض عينيه كم أثرت فيه..

أضافت: «ألأنك كنت صديق أبي؟ أنت لست أبي ايليون، بإمكانك أن تكوني حبيبي إن أردت..»

اسودت عيناه ازدراء، وسأل: «من أجل المخدرات؟».

ضحكت بمرارة: آه.. أنت تقول هذا بطريقة مهذبة.. من أجل المخدرات! ليس لديك فكرة عما أشعر..

ـ هل تمكن باتريك غارنر من جرّك إلى فراشه بهذه الطريقة؟

شحب وجهه الأسمر وأصبح فمه خطاً رفيعاً متوحشاً. ارتدت لتجلس

www.liilas.com

تملأها رغبة في إيلامه.

- تعرف إذن عن باتريك.. لا.. ذهبت معه بمحض اختياري.. ما هو ذلك التعبير الذي استخدمته من قبل؟ «نكران ذات طوعي» أيصدمك هذا؟

قال بغضب مكتوم وعيناه كجبل جليد.

- إذن، كنت عشيقته؟

شعرت بالاكتفاء لأنها آلمته.

- أجل! تظنني سافلة حقيرة. لماذا تتراجع إذن؟

إنه نوع من الجنون ولكنها لا تستطيع منع نفسها..

قالت بخشونة: «بإمكانك الحصول عليّ ايليون بثمن زهيد».

رد بصوت شبيه بصوت المنشار في الحطب، فاقشعر جسمها من لهجته:

- عودي إلى صوابك!

تحدّته بنزق:

- ما الذي يمنعك؟ التردد؟ لم تتردد كثيراً عندما بدأت هذا السيرك!

- لويلا.. نفذي ما أقوله لك.

جعل الغيظ وجنتيها حمراوين، وعينيها بارقتين.

- أتشعر بالخجل؟ هل سيكبح من رغبتك معرفتك أنني لا أريدك؟ حسناً.. ربما أريدك.

لم تره يتحرك، ولكن تأثير راحة يده على ثغرها كانت حادة حدة أرسلت النجوم إلى عينيها.

حدقت إليه للحظات دهشة، مشعثة الشعر متسعة العينين.. ثم، قفز شيء في داخلها، يطلقها من ذهولها، فطأطأت رأسها ووضعته بين يديها باكية بحرقة. ماذا تفعل بحق الله؟..

اندفعت منها الكلمات:

- لا.. لم أفعل هذا كله.. لم أذهب إلى الفراش مع باتريك.. أراد

مني ذلك، وكنت لأفعل لو كنت أضعف من هذا.. لكن..

مد يده إليها، يشدها ليحتضنها بحنان.

- يا الله! كم تخيفينني أحياناً.

أراحها البكاء. وبدأ الجنون يتلاشى، تاركاً إياها ضعيفة هشة بشكل رهيب، خجولة مما قالت وفعلت.

- آه، ايليون.. آه ايليون.. ما أشد شعوري بالخجل.. سامحني.. أنا.. لا أعرف كيف فعلت هذا.. ستكرهني..

كاد يبتسم: «لا».

أخذت المنديل منه، وجففت عينيها:

- ستكرهني وتحتقرني!

- لا.. لن أكرهك أو أحتقرك. إن ما فعلته وقلته عائد إلى الصدمة.

تحولت قوته إلى لطف وتلاشى الخطر من عينيه فاستراحت.. أعطاها الكنزة ليساعدها على ارتدائها بارتباك. نظرت إليه بطريقة طفولية وعيناها مغرورقتان بالدموع.

قال لها بهدوء: لست مضطرة لإخباري بشيء.. حياتك الخاصة شأنك أنت.

ارتجفت ثانية، ومدت نفسها إليه متوسلة:

- أريد أن أبوح لك بكل شيء يتعلق بي.

ضمها بين ذراعيه، واضعاً رأسها تحت ذقنه، تعلقت به ثم راحت الكلمات تتدفق منها:

- لم أخبر أحداً من قبل.. بدأ الأمر في تلك المرحلة المجنونة، المرحلة التي أردت فيها الانتقام من والديّ بسبب ما كانا يفعلانه بي.. عرفت ذلك الصبي الذي كان مجنوناً مثلي.. كان في إصلاحية للأولاد وهو مثلي منحدر من بيت محطم. كان على جسمه وشم كثير وكان يقود دراجة نارية ضخمة..

سحبت نفساً باكياً:

www.liilas.com

ـ . . وهذا ما جعله بطلاً في ناظري . . في حفلة راقصة قلت لنفسي : حسناً هذا هو المناسب لك . . وكان ذلك نوعاً من التمرد . . تمرد غبي لا طائل منه .

راح ايليون يمسح جبينها المحترق إنما بدون أن يتفوه بكلمة ، بل اكتفى بأن قدم إليها عصير البرتقال . شربت منه شاكرة ، كان الشراب هذه المرة حلواً وبارداً .

ـ كان فظاً معي . . كحيوان . . وعندما قاومته غضب وقال إنني جعلته يبدو غبياً ثم تركني . .

ضحكت ضحكة مرتعشة :

ـ قصّة مشينة . . أليس كذلك؟

ـ بل قصة حزينة . أعتقد أنك لم تخبري أمك .

ـ كانت مشغولة بالحصول على الطلاق من أبي لتتزوج بهاريس ووريل . . لم يكن لديها وقت لتستمع إليّ حتى ولو تمكنت من الاعتراف لها .

ـ ألم تكن النوع الذي يهتم من الأمهات؟

ـ أظنها استسلمت . . ونحن الآن بعيدتان أكثر . منذ تزوجت هاريس ، ورزقت بجاين ونيقل ، أصبحت غريبة عني . . وليس هناك إحساس بالشفقة على النفس بالنسبة لي . . وأنا لا أحسدها على سعادتها . . الأمر أنها صنعت لنفسها حياة جديدة ليس لي مكان فيها . . كيف عرفت بأمر باتريك؟

ـ حين تحدثت إلى هيستر بارسلي ، أخبرتني عن موزع صغير للمخدرات يدعى غارنر ، موجود الآن في السجن . . واضح أنه تدرج من توزيع الهيروبين خارج مدارس «الوست اند» إلى إدارة مركز مربح في وسط لندن . . وقالت هيستر إنك كنت عشيقته .

قالت بهدوء :

ـ هذا غير صحيح . . أقسم لك . كنت أقضي كثيراً من الوقت معه ،

لكن بسبب البحث الذي كنت أجريه . . كان باتريك دليلي في القصة التي كنت أكتبها .

ضغطت أصابعها على صدغيها ، محاولة إعادة حدود الألم إلى الوراء .

ـ أمر مبتذل . . أليس كذلك؟ ظننت نفسي ذكية . . أقالت لك هيستر لماذا تركت الصحيفة؟

ـ كان عليّ أن أقرأ بين السطور . . أردت أن تقومي ببحث في عمق أوساط المخدر في لندن . . وقالوا لك إن الأمر خطير جداً ، ولا يمكنهم تحمل المسؤولية في تحركك داخل تلك الدوائر .

هزت رأسها :

ـ وهذا ليس بعيداً عن الحقيقة . . قررت المضي في قصتي على أي حال ، لكن الإدارة رفضت الإذعان . . رئيس التحرير هبط فوق رأسي وكأنه طن من الآجرّ . . هكذا افترقنا . . ظننت أنني سأصلح كاتبة حرّة .

ـ في التاسعة عشرة؟

ابتسمت متعبة :

ـ مجنونة . . لكنني آمنت أن القصة أكثر أهمية من أن لا تكتب .

ـ وغارنر؟

ـ كنت أعرفه بشكل عابر منذ سنتين ، كان أحد معارفي الأقل أهمية . . لكنني كنت أعرف أنني لو دفعته إلى الكلام ، سيكتب هو القصة لي . هكذا بدأت الأزمة ، أحاول التقرب إليه .

سألها :

ـ وكم كان عمق تقدمك؟

ـ كان لي نظرة ثاقبة أكثر من معظم الناس عما يدفع الأولاد إلى الإدمان . التحليل النفسي للمدمنين يقول إنهم يميلون إلى العنف والتمرد . . لكنهم كذلك يأتون من زيجات محطمة . قبل الإدمان يكون لهم سجل حافل بالجنوح ، فشل التعليم ، اضطرابات نفسية .

www.liilas.com

ابتسامتها كانت ترتجف حين تلاقت بعينيه:

ـ أيبدو لك هذا وصف لشخص تعرفه؟ لم يطل بي الوقت كثيراً لأحصل على مواد لقصتي.. لكنني لم أكتبها. لم أتفق مع باتريك، فما إن عرف أنني سأكتب مقالة، حتى رفض أن يدعني أنشرها.. لأنها ستسبب المتاعب له.

سألها بهدوء:

ـ وما الذي حدث؟

بجهد سيطرت على أنفاسها:

ـ كنت في المنزل ذات صباح، أكتب النسخة الأخيرة، حين جاء البوليس، ظننت في البداية أنهم جاءوا بسبب المخدرات لكنهم قالوا: نظن من الأفضل أن تجلسي آنسة ستيرلنغ.. المايجور ستيرلنغ كان في طائرة تحطمت ليلة أمس، في أفريقيا. لا ناجين فيها.. والموت حدث على الأرجح فوراً، وستستعاد جثته إلى وطنه لتدفن.. أظنني أصبت بنوع من الصدمة.. فذهبت إلى «بيوريي» لأخبر أمي.. كانت قد سمعت، ولا أظنها اهتمت حقاً.. ولم يحضر أي منهما الجنازة.. حين عدت إلى لندن التقيت باتريك، وأخبرته ما حدث، فأخذني إلى شقته.

هزت كتفيها بألم، تحس بالضعف والوحدة أكثر مما أحست به في حياتها.

ـ كنت مصدومة ايليون. وأعطاني الهيروبين، قال إنه مزيل للألم.. وفجأة لم أعد مراقبة لما يجري.. بل أصبحت متعاطية.

توقفت مرهقة.. ثم عاودت الكلام:

ـ لقد تأكد من حصولي على ما يكفي من كمية لأطلب المزيد..

كان على وجه ايليون غضب بارد.

ـ يا إلهي! يا له من نذل؟

قالت متعبة: «لقد نال عقابه.. اعتقل بعد بضعة أيام في مانشستر، ونال حكماً بالسجن سبع سنوات.. ولكنني كنت غبية بمقدار ما كان

شريراً.. ما كان عليّ متابعة تعاطي المخدرات ولكنني أوهمت نفسي بأن هذا جزء من بحثي، وبأنني لن أكتب مقالة تنال الجائزة الكبرى بلا تجربة شخصية.

قال بحدة: «أيتها الحمقاء الصغيرة.. كان عليك طلب العون».

نظرت إلى أصابعها، تلوبها:

ـ لم أرد العون.. وما زلت لا أريده. أستطيع القيام بهذا بمفردي.

شخر باستياء وازدراء، فعضت شفتها بصمت.

راقبها ايليون وهي تأخذ فرشاة الشعر المرمية على الأرض لتمشط شعرها المبعثر بحركات بطيئة غير واعية.. ما الذي يشعر به نحوها الآن؟ أيحتقرها؟ أيشفق عليها؟

قالت بصوت هامس: «ليتني أعرف فيما تفكر».

أدفأت ابتسامته كل شيء في الغرفة:

ـ الآن؟ كنت أفكر بجمالك.

توقفت عن تسريح شعرها، ووضعت الفرشاة من يدها وراحت تحدق إليه.. إنه هو الوسيم، نعم هو أوسم رجل عرفته ولكنها لم تستطع تحليل مشاعرها أكثر من هذا لأنها مرهقة.. للمرة الأولى في تلك الليلة أحست بأنها عادت المرأة التي كانت قبل أن يبدأ الكابوس.

تعرف أنه لن يدوم الكابوس.. سألته بسذاجة: «كم من النساء عرفت؟»

ضحك ايليون بعذوبة على السؤال، فهزت رأسها مردفة:

ـ أعرف أنه سؤال مجنون. لكن لا شك أن نساء كثيرات أحببنك، وتعلقن بك، هل أحببت إحداهن؟

قال بصوت مخملي ناعم: «هذا وقف على نظرتك إلى الحب».

حاولت إيجاد الحقيقة في عينيه الساخرتين:

ـ ألديك امرأة الآن؟ زوجة غيور؟ أتعلم أنك معي في منزل ريفي يبعد أميالاً عن اللامكان؟

www.liilas.com

ابتسم: «لو كان عندي زوجة غيور، وشاهدتك منذ خمس دقائق، لما كانت حياتي أو حياتك تساوي بنساً واحداً».

لم تستطع غير الضحك. أغمضت عينيها، تصغي إلى هسيس الحطب وناره، تذكر كيف استجاب لها قبل قليل.

ثمة شيء ما ينمو بينهما، شعور يتفاقم بعمق وحرية، شعور يقلص معدتها ويدغدغ عواطفها. أتشعر بمفردها بهذا الإحساس؟ رجل كايليون، قادر على الإشارة بإصبعه لأية امرأة فتنصاع إليه. من غير المتوقع أن تثور عواطفه نحو فتاة عمرها تسعة عشر عاماً.. خاصة وهي عصفور مكسور الجناح كلويلا ستيرلنغ.

لكنها لم تكن راغبة في أن يخيب أملها.. لم ترد أن تسقط ذليلة عندما تدرك كم كانت غبية. تنهدت، مسرورة لأنها لا تألم. وقالت حالمة:

ـ طريقتك رائعة.. تجذب مني أسراري جميعها، وكأنني جالسة على كرسي اعتراف..

قال ساخراً: «لست كاهناً».

غضت طرفها: «أعرف».

ابتسم مداعباً: «لا يكفي التحرر من المخدرات لويلا.. من المهم أن تطلقي من نفسك كل ما كان خاطئاً في حياتك ماضياً».

في النظرة التي نظرت فيها إليه من تحت رموشها شيء من العبث الماكر:

ـ أنا حفنة إزعاج.. السيدة جونز على حق، لا أظنك تعرف ما تأخذ على عاتقك.

كان وميض عينيه أشبه بحد سيف تحت أشعة الشمس.

ـ ربما لا.. مع أنني أعرف والدك معرفة تجعلني أدرك أن عندك روحاً مقاومة.

عادت الذكرى كلمح البصر.. في المرة الأخيرة التي التقت فيها والدها في ناد لندني كئيب. أخبرها أنه متأثر كثيراً بعملها في «السيتي

نيوز» وتجاوبت معه بشكل مرح: أنت لا تحب هذا الأمر يا أبي.. أعني مهاجمة النظام. نظر إليها ضاحكاً «أنت لا تختلفين عني كما تتصورين لويلا». نفضت الذكرى عنها بسرعة.

تحركت عضلات جسده وهو يقف.

ـ أنت مرهقة، قنبلة موقوتة، حان وقت النوم.

راحت تحدق إلى الظلام وهي مستلقية في الفراش. كان وجه ايليون يطاردها.. لقد أفشت له بكل مكنونات قلبها مع أنها لا تعرف غير القليل عنه أو عن علاقته بأبيها، أو عن هذا المكان بل عن أي شيء آخر..

لقد تقبلت ببساطة وجوده وقوته ولكنه وجود تكرهه وتثور ضده.. والكره والثورة هما حالتان لازمتاها طوال حياتها.. لم تتكلم قط عن نفسها كما فعلت.. ولم تضطر قط إلى تحليل حياتها. إن لإيليون قدرة خارقة على انتزاع الأسرار من قلبها بغية دفعها إلى رؤية نفسها على ما هي عليه في الواقع، ربما سبب معظم مشكلتها عدم تفكيرها في حياتها ومشاكلها بشكل كاف، فطالما تجنبت التفكير في حياتها.

تدفقت الدموع من عينيها بحرقة، متسللة إلى وجنتيها. الحزن أمر مختلف عن الشفقة على الذات. الشفقة على الذات تجعلها أنانية سافلة.. إنها كالمخدرات، تمنعها من الاهتمام بنفسها. إنها تجعلها ترى الدنيا كلها من خلال شق ضيق حيث لا شيء يهم غير المشاعر الخاصة الضيقة. وثب تشنج لا إرادي مفاجيء إلى داخلها.. فأغمضت عينيها تحس بالقشعريرة تسري في جسدها كله ثم تصاعد الغثيان.

ـ آه!.. يا الله..

لقد انتهى وقت الاسترخاء.. وها هي نوبة الألم تعاودها. احتضنت الوسادة، كما كانت تفعل في طفولتها وراحت تصرّ أسنانها لكبح الارتعاش الذي بدأ من جديد. عاد ذلك الارتعاش المؤلم يتصاعد، وقاومته بيأس.. يجب ألا تفكر فيه، يجب ألا تعترف بأنه يهزها حتى أعمق أعماقها.

www.liilas.com

فكري في ما قاله ايليون: ستيلاشي المخدر من جهازها العصبي في بضعة أيام.. وستكون في صحة وعافية من جديد بلا خوف من الحاجة إلى المخدرات.

استحضرت وجه ايليون إلى تفكيرها، تحاول التركيز على النار الباردة في عينيه.

* * *

كانت مرهقة، معنوياتها مظللة بغمامة سوداء من الإحباط. هزت نوبة سعال كل جسدها، وهي واقفة أمام نافذة المطبخ تحدق إلى المطر المنهمر، بعدما دفعت طبق الطعام بعيداً عنها باكية.

ـ لا أريد أن آكل! ألا ترى أنني غير قادرة على إبقاء شيء في معدتي؟

ارتد عذاب ليلة أمس الحاد وحل محله فراغ يكاد يدفع المرء إلى الانتحار وتشعر أنها شخص مسجون ومنسي. لم يسبق أن شعرت بمثل هذه الكآبة والهجر.. أيعقل ألا يفتقدها أحد في لندن؟ إنها في هذا السجن منذ أكثر من أسبوع.. ولا شك أن أحد لاحظ غيابها؟

ولكنها عرفت في أعماقها أن لا أحد سيفتقدها.. فمنذ بدأت تكتب التحقيق عن المخدرات، اعتاد الأصدقاء على اختفائها.

كانت مشاعرها نحو ايليون تتأرجح وتميل إلى العدائية.. وكأنما هو الشخص الوحيد الذي يسبب لها التعاسة.

سعلت بألم مجدداً.. وقالت بصوت متألم:

ـ يا الله.. كم أكره هذا المكان اللعين.. أحس أنني عالقة في فخ هنا.

فركت ذراعيها المقشعرتين: «أريد الابتعاد من هنا!»

قال ايليون وكأنه يقرر أمراً واقعاً:

ـ أنت تفقدين من وزنك.

كان متكئاً إلى طاولة المطبخ.. مرتدياً سروالاً من الجينز ومنتعلاً مداساً طويل الساقين بني اللون أما الجزء العلوي منه فملتف بكنزة صوفية

تزيد من إبراز قوة ذراعيه وكتفيه.. زادت الثياب الخشنة من رجولته..

كان ينظر إليها مقوّماً بعينين ماكرتين:

ـ يبدو هزالك في أماكن خاطئة.. لا أريد أن تتسطح هذه الحنايا آنسة ستيرلنغ لأن ذلك يعتبر تخريباً متعمداً.

قالت بحدة خالية من المرح: «لست موضوع إغراء».

ـ لن تكوني موضوع إغراء بعد وقت قصير.. خاصة وأنت مصرة على تجويع نفسك.

قطع بضربات مدروسة تفاحة إلى أربعة أقسام ثم قدم لها قطعة.

ـ يجب أن تتناولي شيئاً وإلا فقدت القوة.

ارتدت نحوه محمومة:

ـ وعدتني بمسكن للألم. أنت كاذب! قلت إنني أستطيع تناول المسكن ابتداء من اليوم!

ـ أوعدتك؟ حسناً.. كلي بعض التفاح على الأقل، وقد أسمح لك بقرص أسبرين.

تبدل مزاجها فجأة إلى الوحشية.. انتهت أية هدنة بينهما الآن.. فكل ما تشعر به نحوه هذا الصباح هو المرارة، كان ردها الحاد منافياً للأخلاق. الجو في المنزل لا يطاق. كانت الجدران تطوقها كجدران السجن..

قالت متأوهة، تنظر إليه بحدة:

ـ لقد اكتفيت.. سأترك هذا المكان حالاً!

ـ حقاً؟

ـ أجل.. حقاً!

ما زال ايليون محافظاً على أعصابه. غرز السكين في خشب الطاولة الصنوبري وعقد ذراعيه:

ـ هيا.. إذن.

ارتدت على عقبيها وتوجهت إلى الباب الأمامي تستمتع بطعم المعركة القادمة. إنها في مزاج لمعركة حامية. لديها عذر اليوم لمهاجمته

www.liilas.com

والانقضاض على مظهره الهادىء.

لكنه لم يحاول منعها.

جذبت معطفاً واقياً من المطر عن المشجب قرب الباب. وضعته على كتفيها ثم صفقت الباب خلفها، كان المعطف كبيراً جداً، ولكنه حماها من المطر والريح.. كانت ترتدي تحته كنزة قطنية خفيفة وجينزاً.

لم يلحق بها ايليون. هل سيتركها تخرج هكذا؟ كانت متوترة يائسة بحيث لم تهتم بما سيحدث.. ما زالت السيارة متوقفة أمام المنزل.. ولكن المفاتيح غير موجودة فيها.. يا لدهاء ايليون.

سارت لويلا نحو الأشجار على الطريق التي سار عليها يوم جلبها بسيارة المرسيدس. شدت قبعة المعطف فوق شعرها، وتابعت المسير تحت أغصان الشجر التي تتقطر منها المياه.

هناك حدود.. حدود لما تطيق احتماله. لم يسبق أن جعلها أحد تتعذب كما يفعل بها ايليون.. لا يحق لأي إنسان بتعذيبها حتى ايليون ملك الردود الذكية.

كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة عليها هي الفرار والوصول إلى الطريق.. عليها بادئاً ذي بدء الابتعاد عن هذا المكان.. التفتت إلى الوراء.. لا يلحق بها ايليون. أمن المعقول أن يتركها تذهب هكذا ببساطة؟.

تابعت سيرها بضع مئات من الياردات.. ولكنها كانت متعبة مرهقة وبدا لها أن لا طاقة بقيت في جسدها.. كل مفصل من مفاصلها يلتهب ألماً. وكل عضلة من عضلاتها تنقبض كرفاص مكسور.

فجأة تباطأت ساقاها. تقدمت بضع خطوات أخرى مؤلمة، ثم أصبحت عاجزة عن التقدم.

اضطرها الغثيان إلى الانطواء على نفسها.. لكن ليس في معدتها شيء ليخرج. غاصت يبطء على ركبتيها فوق حصى الطريق المبتل، ما بين الأوراق الحمراء والذهبية المتساقطة.. كانت مرهقة إرهاقاً جعلها لا

تستطيع البكاء.

لهذا تركها تخرج.. كان يعرف أنها لا تملك القوة للابتعاد أكثر من بضع مئات من الياردات.. اللعنة عليه.. اللعنة عليه.

نظرت لويلا إلى الخلف بعينين مغشيتين. المنزل بعيد عن النظر.. آه! ليس لديها بقايا القوة على العودة.

ظلت راكعة تحت المطر، ترتجف بضعف.. تنتظره.

* * *

www.liilas.com

كان يقرأ بالضبط ما تفكر فيه:

- آه.. لقد فهمت الرسالة أخيراً.. ستكونين امرأة حرّة بعد وقت قصير.. أنت الآن في منتصف الدرب.. ماذا تفعلين لو أعطيتك بعض الهيروبين الآن؟

هزت رأسها وهي لا تعرف الجواب.

- يبدو هذا مستحيلاً.

قال بحدة: «ليس مستحيلاً.. لكنه صعب.. إلا إذا كان هناك عدم استقرار شخصي يشلك نفسياً. ولا أظنه موجوداً عندك. مررت بأصعب مرحلة في حياتك.. أجل، ولقد انتهت الآن. آن لك أن تعودي إلى الحياة».

قالت بصوت خفيض: يقال إن لا أحد يقدر على التخلص من الهيروبين.

أشار بيده بنفاد صبر.

- أصبح آلاف الجنود الأميركيين في فيتنام مدمنين لويلا.. ومع ذلك عندما عادوا، تخلص الجميع من الإدمان إلا حفنة بسيطة منهم.. ظل واحد بالمئة مدمناً بعد عودته إلى وطنه.

- لكن لندن ليست كسايغون، وليس لدي عذر الحرب.

- لا.. لكن تجربة فيتنام تظهر شيئاً هاماً هو أن الإدمان قد يكون تجربة عابرة في حياة الإنسان.. أتفهمين ما أقول؟ إنه شيء قابل للمحو عندما تتضافر العوامل.

هزت رأسها تحتضن ساقيها:

- مثل ماذا؟

- مثل الضغط النفسي الذي مررت أنت به، مثل الإحساس بأن لا أحد يحبك، كأن يدفعك شخص من هذا العالم إلى المخدر، اسمه باتريك غارنر.

مد يده إليها، حيث راحت أصابعه تحفر بألم في ذراعها:

- هل تصغين إلي؟

قالت مرتعشة: «أصغي».

- إذن افهمي أن هذا بالضبط ما حدث لك.. وقد انتهى الآن، لقد مررت بأسوأ مرحلة وستنجحين. أقسم لك..

التفتت عيناها إلى الساعة في يده، لم تكن رخيصة، بل كانت رولكس ذهبية فيها حلقة نارية من الألماس..

إن ساعات كهذه، وألماساً كهذا غير رخيص.. كل ما فيه ينطق بالنجاح. جسده المليء رجولة، ورشاقته التي تدل على قوة خطيرة، ولكن هذه القوة تدفع المرء للاحترام والخوف. ماذا يفعل هنا؟ لماذا يضيع وقته مع ابنة صديقه الميت التي كانت مدمنة؟

سألته: «حدثني عن أخيك.. قلت إنه كان مدمناً.. ماذا أصابه؟»

تصلب وجهه.. عرفت أنها تخوض أرضاً محرّمة، ولكنها رغبت فجأة في توسيع الشق بينهما.. كررت بهدوء:

- أرجوك.. أخبرني ماذا أصابه.

ارتد إلى الوراء ببطء، وبدت عيناه غارقتين بعيداً. أحست مرة أخرى بأنه ينتمي إلى الجبال، إلى الصحراء وإلى أماكن بعيدة عذراء، كان فيه ما لا يمكن لامرأة أن تدجنه.

قال بصوت منخفض: «حسناً.. لك الحق أن تعرفي.. كان فرانسيس مصاباً بالسرطان».

نظر إلى وجهها ساهماً، وكأنه لا يراها.

- سرطان في العظام. كان في الثالثة والعشرين عندما مات.

- أنا.. أنا آسفة ايليون.

كان عليها أن تقول شيئاً، أن تقدم شيئاً في الصمت المؤلم.

- كانوا مضطرين لاستخدام مسكّن قوي للألم.. لأن الألم كاد يدفعه إلى الجنون.. استخدموا المورفين والهيروبين.. هل خطر ببالك مدى بشاعة هذه الأسماء؟

www.liilas.com

رفعت يديها: «عندما قلت إنه كان مدمناً..»

وسقطت يديها مجدداً في حضنها.

- لم أعرف أن هذا ما حدث.

- وكيف لك أن تعرفي؟ لا تكوني مأساوية إلى هذه الدرجة، حدث ذلك منذ زمن بعيد حتى بات الكلام عن فرانسيس لا يؤلمني يا عزيزتي..

أراح ذقنه على قبضته، ووجهه كئيب:

- لقد كانت حياته جديرة بالاهتمام. بعد الجراحة وسلسلة من العلاج الإشعاعي خفَّ الألم. ولكن المرض سرى في جسمه بحيث بقي أمامه بضعة أشهر فقط ولكنه لم يرغب أن يموت مدمناً.

- كيف فعل هذا؟

قال كمن يحلم: «ذهبنا معاً إلى كورسيكا، لقضاء عطلة بل فلنقل وهادىء كهذا.. وهناك مررنا بالتجربة كلها. كنا نتحدث وننتظر، ونستمع إلى الجبال.. لم يكن لديه قوة جسدية طبعاً ولكن كان يملك إرادة صلبة، وعقلاً صافياً. ما إن عدنا إلى عائلتنا حتى كان رجلاً حرّاً.. وفي ذاك الوقت راح يعد نفسه وشؤونه لمواجهة الموت بوقار.. أحمد الله لأنه لم يعد يتألم. مات بعد ثلاثة أشهر، في منزل العائلة».

تبللت رموش لويلا..

- أكان.. شقيقك الوحيد؟

ابتسم تلك الابتسامة التي تذيب القلوب والتي غضنت الخطوط حول عينيه وفمه ولكنها اختصرت من عمره عشر سنوات.

- آه.. لا.. لدي شقيقان وشقيقتان أصغر مني سناً. إنما كنت وفرانسيس على علاقة وطيدة.. علمته التزلج، والإبحار، والسباحة، وقيادة السيارات والطائرات..

سحب نفساً عميقاً، ثم أردف: «كنا خير صديقين».

اقتادها إلى المطبخ حيث صب لها قصعة من «الكورن فلكس»

والحليب. في هذه المرة لم تجادله، بل جلست حيث أمرها لتتناول الطعام ذاهلة.

تابع يراقبها من فوق ذراعيه المعقودتين:

- حسناً.. ماذا عن ذلك المقال؟ قلت إنك كنت تعملين على كتابة النسخة الأخيرة. هل ستحاولين نشرها؟

- لا أدري.. ترعبني فكرة المخدرات الآن..

- وماذا عن «السيتي نيوز»؟ أما زالت وظيفتك بانتظارك؟

ردت بصوت خافت:

- لا أظن.. على أي حال، لا أدري ما إذا كنت راغبة في العودة، حتى وإن كانوا مستعدين لقبولي.

سألها جاداً: «ماذا ستفعلين؟»

- إن عدت مرة أخرى إلى الحياة الطبيعية فسأبدأ من جديد. ربما سأكتب قصة، أو أحاول العمل في النشر، سأجد شيئاً.

ضحكت وهي تهز كتفيها بصعوبة.

قال بلهجة قاطعة:

- يجب أن تفعلي هذا، لا يمكنك السير على غير هدى.. من المهم لك أن تعودي إلى حياتك الطبيعية. إن أردت بحثت لك عن عمل.

تغيرت تعابير وجه لويلا، وقالت بجفاء:

- هذا لطف كبير منك.. ولكنني لا أريد منّة أحد. شكراً.

- ولِمَ هذه الكبرياء الغبية؟

- أظنك ذا نفوذ كبير سيد ايليون؟

كانت تجد عجرفته أحياناً لا تطاق وكم كانت تثيرها عندما يتكلم عنها بمثل هذه الطريقة المتملكة.

أردفت: «واثقة من قدرك على لوي ذراع شخص ما من أجلي.. ولكنك تدخلت في حياتي بما فيه الكفاية حتى الآن.. أحب أن أعوم أو أغرق بمفردي».

www.liilas.com

كان صوتها بارداً حاداً كالأسيد. . تحول حاجباه إلى خط موصول عاصف مدة ثوان، ثم استرخت أساريره:

ـ أفضل أن تقومي. . على أية حال، أنت لم تخرجي بعد من الدوامة، لويلا. . فلا تكوني متعجرفة قبل الأوان.

نظرت إلى ما تبقى من الحليب في القصعة الفارغة. ولكن الحديث ما زال صداه يتردد في عقلها. العودة إلى حياة طبيعية، العمل ثانية، الحصول على القوة لمواجهة أصدقائها القدامى، والقيام بصداقات جديدة. أيكون هذا كله في متناول يدها؟ منذ بضعة أيام، كانت ستضحك بمرارة من الفكرة أما الآن. .

قالت فجأة وهي تنظر إلى الوجه الوسيم الذي اعتادت عليه:

ـ ربما أعيد كتابة المقال على أي حال. بت أعرف معلومات كثيرة. إن الإدمان كالعمل مع جماعة سرية. . تشعر كأن حياتك تتغير من الأبيض إلى الأسود. وتصبح فجأة غير قادر على التفكير في الأمور العادية بل ينصب تفكيرك على الجرعة التالية وكيف تتجرعها ومن أين. . أنت لا تتعاطى المخدر لتشعر بأنك على ما يرام. . بعد الجرعات الأولى تتجرعه لتبعد نفسك عن الشعور السيء.

التقطت قصعتها تحاول أخذها إلى المغسلة، ثم أردفت:

ـ لكنك تضطر إلى أخذ المزيد والمزيد، لتوقف شعورك بالتمزق.

انزلقت القصعة من بين أصابعها فتبعثرت قطعاً فوق الأرض. . كادت تبكي فجأة، وأحست بالدموع تتصاعد.

ـ الأمر. . رهيب جداً.

كان النحيب قوياً، هزها بقوة. كانت حزينة على ما جرى لها في الأشهر الثلاثة الماضية. . حزينة بسبب الألم الذي شاهدته وأحست به. كانت تشعر بيدي ايليون تسندانها وتقودانها إلى كرسيها، ثم وجدت نفسها تذرف الدموع على كتفه، كان صوتها منكسراً وضائعاً. إنه صخرتها التي تتعلق بها.

مات النشيج بعد فترة، تاركاً إياها مرتجفة ضعيفة كهرة صغيرة. كان ايليون يمسح شعرها، ويحتضنها بقوة.

قالت وهي تنتحب وتضحك:

ـ آسفة على القصعة. . آسفة على كل شيء ايليون. . أنا حمقاء كبيرة. . ولا أدري ما الذي يعتريني. .

قال بلطف: «حطمي كل ما في المنزل إن كان ذلك يبكيك. الدموع هي أفضل دواء لك الآن».

لامست شفتاه الدافئتان كل عين، وكأنه يجفف لها رموشها بشفتيه:

ـ سأعد بعض الشاي.

أشغل نفسه بالإبريق أما هي فراحت تجفف وجهها. . راقبته بعينين بارقتين فشعرت بأنها أقرب إليه من أي وقت مضى، بل أقرب إليه من أي إنسان آخر. . هذا الرجل المهيب يعدّ لها الشاي. اخترقت خفقة قلبها كالسهم، لم تكن رغبة جسدية، بل رغبة نفسية في أن تكون دائماً قريبة منه في السراء أو الضراء.

لم تمر قط بإحساس كهذا من قبل. . ما من تجربة كانت غالية على نفسها كتجربتها المرة مع ايليون. صحيح أنه يدفعها إلى الجنون أحياناً، وصحيح أنه أحد أكثر الناس عجرفة وقوة إرادة، ولكن كراهيته كانت عاطفة نشيطة وحيوية لم يسبق أن شعرت بمثلها. إنه قوي بشكل طبيعي. تتذكر كيف تمكن من اختطافها بسهولة من الشارع، وكيف بدا رجلاً كاملاً في ذلك المعطف الصوفي الجميل.

فكرت حزينة: آه. . ايليون، أعطيتك أسباباً كثيرة لتحتقرني. . فهل ستتعلم يوماً أن تنظر إليّ كامرأة، لا كعصفور مهيض الجناح؟

أنبأها شعور ما بأنه سرعان ما يخرج من حياتها. . وكان أن ملأت الفكرة قلبها ألماً وسقماً.

بزغ الصباح التالي جميلاً لا غيمة فيه، وأخذها ايليون إلى العزبة.

استيقظت وهي لا تشعر إلا بالقليل من الألم الذي لا يشوبه الإحساس

www.liilas.com

المزعج بالتوتر.. فيما كانت تتناول الفطور، شعرت بعيني ايليون تتأملان اللون الذي بدأ يظهر على خديها.

كانت الدعوة لمشاهدة مزرعة استيلاد الخيل عفوية، وكأنه لا يريد استعجال قرارها.. ولكن لويلا دهشت عندما تجاوبت معه بلهفة.

إنها المرة الأولى التي تبتعد فيها عن أمان المنزل وغابة «داركرايزنغ»، كانت تجربة غريبة ملؤها القلق تقريباً.. يبدو أن أسوأ مراحل شفائها قد مرت. فكرت وهي جالسة في المرسيدس إلى جانبه، في اليوم الذي التقطها فيه في لندن.

سألها ايليون وهما يمران بالغابة:

ـ هل زرت مزرعة استيلاد الخيل من قبل؟

هزت رأسها.

إن منظر مزرعة الاستيلاد لا ينتسى.

كانت مجمعاً ضخماً من الأبنية البيضاء الجدران، الرمادية السقف.. ظهرها محمي بغابة «داركرايزنغ وود» وواجهتها تطل على مساحة واسعة جميلة من الميادين المخصصة لعدو الجياد.

شكلت الأبنية أربعة أبنية ضخمة، تغطي على الأقل ثلاثة فدادين.. عندما كان يقود السيارة إلى طريق معبد طالعهما رعيل من الجياد يقود كل رعيل فتى.

كانت لويلا مذهولة بما ترى، بحيث لم تقل سوى:

ـ واو!

لقد تصورت شيئاً كبيراً.. إنما لم تتوقع شيئاً بهذا الجمال الذي يشبه جمال الجواهر.. ايليون أوكلاند ليس غنياً فحسب بل هو ثري بشكل لا يصدق.. سألت متعجبة: «أتملك هذا المكان؟»

ـ اشتريتها منذ عشر سنوات، عندما كانت في حالة سيئة، وأنا أعيد إليها بهاءها منذ ذلك الوقت.

تحرك الحصى تحت أقدامهما وهما يسيران في الفناء الرئيسي نحو

لوحة تقول «قاعة الاستقبال»..

تابع ايليون: «في العام الماضي تمكنت من شراء أرض مجاورة.. عدة مئات من الفدادين غير نافعة للزراعة ولكنها مثالية لتدريب الجياد».

نمتمت وهما يسيران في المبنى:

ـ هذا لا يصدق.. كيف سارت امبراطوريتك بدونك في الأسبوعين الماضيين؟

ابتسم: «لا تكاد تكون امبراطورية.. استيلاد السلالات عالم غريب في طبيعته الحميمة.. لا تخدعنك هذه الأجهزة حولك. إنها كومبيونرات لتخزين المعلومات عن الجياد.. إنها توفر علينا الكثير من الأعمال المكتبية».

قدمها إلى فتاة سمراء جميلة اسمها أنجيلا ستراند، وهي مسؤولة المكتب. راقبت لويلا الموظفين، إن معظمهم من الشابات. كان ايليون يتعامل مع لائحة من الطلبات أعطته إياها أنجيلا. أحست بالحسد من حياتهم المرتبة. شعرت برغبة في أن تكون واحدة من هؤلاء الشابات الجميلات اللاتي لا هم لهن غير تعلق مفتون برئيسهن.

كان المكان مرتباً ملؤه العمل، برز ايليون رغم كل ثيابه العادية، سيداً وسط ممتلكاته. لم تستطع لويلا إلا أن تلاحظ الاحترام الذي يقدمه إليه الموظفون بدءاً من عمال الإسطبل وصولاً إلى المدراء.. يتجاوب فيه معهم.

انكشف خلف المكاتب المجهزة بالكومبيوتر المزيد من السحر. ففي وسط محيط من المروج الخضراء التي تشكل فيها مباني الإسطبلات حرف L ضخم، كان المنزل الرئيسي الذي يكاد يكون كاملاً إذا قورن مع مباني الاسطبلات الطويلة.. منزل مؤلف من ثلاث طبقات، مبني من الحجر المنحوت. كانت النوافذ المقنطرة تطل على الأراضي، وقرب المنزل مستنبت زجاجي ڤيكتوري الطراز، ووراء هذا كله اخضرار غابة «داركراسنغ».

www.liilas.com

يكاد يخطف هذا المنظر المستحم تحت أشعة الشمس الأنظار. ثمة ستة جياد تتمرن في حقل يقع على الجهة الغربية من المبنى الرئيسي.

سألت لويلا برهبة: «أتسكن هنا؟»

هز رأسه: «أحياناً.. مع أن المنزل الريفي يناسبني أكثر.. وهو مكان أجد فيه الخلوة».

ابتسم لها.. تذكرت النظرات الفضولية التي رمقتها بها بعض السكرتيرات.. أيعرف جميع من في المزرعة أن ايليون أوكلاند يحتجز مجنونة في المنزل الصغير؟

سألت مترددة: «أيعرفون بأمري؟ أعني الموظفين؟»

رد بلطف: «يعتقدون أنك ابنة عمي التي تستعيد عافيتها من مرض خطر.. لا أحد يعرف من أنت حقاً، أو لماذا أنت هنا».

تمتمت: «هذه رحمة.. ماذا سيقولون لو عرفوا أنك خطفتني؟»

ـ وماذا سيقولون لو عرفوا أنك مدمنة هيروين؟

كانت عيناه تشعان تحدّياً لها، فأشاحت بوجهها. وأمرها ضاحكاً:

ـ تعالي.. سأريك أفضل فحول الاستيلاد لدينا، قبل أن ترى المنزل.

كانت مخلوقات جميلة. كان فحل ملوكي المنظر، أما الاسطبلات فتضم تدفئة مركزية، ومكاناً واسعاً. أعطاها ايليون قطع السكر لتقدمها إلى الجياد اللطيفة بينها. أحست بإثارة غريبة وهي تلمس أنوفها المخملية التي راحت تتنشق راحة يدها.

كانت الأفنية حول الاسطبلات، مصممة لتمنح الجياد أكبر قدر ممكن من أشعة الشمس والهواء. في المجمع الرئيسي مختبر رائع التجهيز، وبركة غير مخصصة للموظفين بل للجياد. ابتسم ايليون رداً على سؤالها الساخر:

ـ السباحة تمرين رائع للجياد.. لكن الطقس بارد في مثل هذا الوقت من السنة. في الصيف، لا تحب الجياد شيئاً أكثر من السباحة.

تمتمت: «إنها تعيش أفضل من أكثر البشر».

ـ وهي تعمل بجهد أكثر من معظم البشر وتكسب أموالاً كثيرة.

ربت عنق فحل كستنائي كبير، كان يطل برأسه من نافذة اسطبله بفضول.

ـ هذا «فارس البحر» قام بست سباقات ربحت فيها ما يزيد عن مئة ألف جنيه هذه السنة. والأهم، أن نسله أظهر موهبة مثيرة في السباق هذا الموسم.. يبرهن على أنه أب مميز.

استطاعت لويلا رؤية العلاقة الوطيدة ما بين الرجل والحيوان.. وتمتمت وهي تمد يدها لتداعب الشعر الأسود:

ـ يعرف أنك سعيد به.. لماذا اتجهت إلى استيلاد الخيل من بين كل الأشياء؟

نظر إليها بدهشة، ثم أطرق قليلاً، وكأنه يتذكر أنها لا تعرف شيئاً عنه.

ـ عملت عائلتي دوماً في الاستيلاد وذلك منذ القرن الرابع عشر بل قبله كذلك.. كانوا من الغجر في الأصل، أو هكذا تقول الأسطورة ولكنهم استقروا في منتصف أوروبا في العصور الوسطى.. لقد سارت خيول «أوكلاند» في جيوش البابوات، وتسابقت مع اسطبلات الأمراء في أنحاء أوروبا كلها. كانت الملكة اليزابيت الأولى، تملك جواداً من استيلاد عائلة أوكلاند.

اقتادها إلى الفناء التالي، حيث مجموعة من الفتيان الذين كانوا يتملقون فرساً صغيرة حتى تخرج من عربة مخصصة للجياد..

تابع يقول: «في القرن التاسع عشر.. أصبح العمل في أحط قدر وكان اختراع السيارة الكفيل في ما تبقى. في نهاية القرن، انتقل جدي الأكبر إلى انكلترا، وحافظ على العمل واسم العائلة..».

علقت بعذوبة وهي تنظر إلى وجهه:

ـ أرى أنك أعدت مجد أسلافك القدامى.

ـ حاولت جهدي.. كان عندي منذ الطفولة طموح حقيقي واحد..

www.liilas.com

هو إحياء مزرعة أوكلاند من جديد.. كان أخي فرانسيس، عبقرياً في حقل الكومبيوتر. تدرب طوني ليصبح محامياً أما شقيقتاي فمهتمتان بزوجيهما وأولادهما.. وهذا يعني أن لا أحد سواي هو المرتد إلى الأسلاف.

ـ مع كل هذا أنت أكثر تعقيداً من أن تكون مرتداً.. أنت تنعم بالسيارات الفخمة وبالكومبيوتر، وأشياء حديثة كهذه.. أليس هذا تناقضاً؟

نظر إلى ثغرها بعينين ممعنتين، وكأنه يتساءل أتفهمه حقاً.

ـ ربما.. ولكنني أشعر بأن هناك دافعاً داخلياً يدفعني للعمل مع الخيول.. شيء ورثته من أسلافي القدامى.

سألت مازحة: «شيء يجري في الدم؟»

ـ ولم لا؟

أشار إلى رجل يرتدي معطفاً من جلد الغنم:

ـ هذا الرجل هو سكوبي هيلسبي، المدير ورئيس المدربين.. وأنا أثق بحكم سكوبي بشكل مطلق. كان والده يدرب الخيل وقد سبقه إلى ذلك جده.. وهذا يجري في الدم أيضاً.. أريد أن أريك «ساتين» أي إبليس، أفضل جواد لدينا.. هل أنت متعبة؟

لم يكن في عينيه قلق وهو يمسك ذراعها.. رفع ذقنها إليه لينظر إلى وجهها.

ـ أعرف أنك غير قوية حتى الآن.

ابتسمت، مع أن التمرين الذي لم تعتده بدأ يؤثر فيها كما أن لمسته عنت الكثير لها:

ـ أنا بخير.. أريد رؤية «ساتين» ايليون..

كان الحصان رغم ضخامته رشيق الحركة كهر صغير. اقتاده خادم الاسطبل إلى خارج الباب، وكانت العجرفة مسطورة على قسمات أنفه المتكبرة.

اقتاد الفتى الجواد فلم تستطع لويلا غير الشعور بالذهول من لين حركاته الراقصة.. كانت عضلاته الممشوقة محددة بشكل بارز.. وقد زادت قوة قوائمه الطويلة من استدارتها.

لانت عينا ايليون: «هذا هو «ساتين» لويلا.. فرحنا وفخرنا.. هل أخرجته ليقوم بالتمارين مات؟».

جاء رد الفتى بلهجة يوركشاير العريضة:

ـ ليس بعد سيد أوكلاند.. لقد ركض خبباً في الحقول يوم الخميس الماضي ولكن البيطري أبقاه في الإسطبل منذ ذلك اليوم.

ـ ألهذا يبدو ناقماً قليلاً إذن؟

راقبت لويلا ايليون وهو يمرر أصابعه على ساق الجواد، متمتماً كلمات التحبب بصوت منخفض.

ـ التورم خفيف هذا الصباح، أظنني سأخرجه بنفسي، مدة عشر دقائق فقط.. اسرجه لي أرجوك مات.

ابتسم في وجه لويلا، فيما كان الفتى يسرج الجواد.

سأل: «ما رأيك به؟».

ردت بصدق:

ـ إنه رائع.. إنه يساوي ثروة بلا ريب.

رد ساخراً: يا لها من فكرة مرتزقة.. أجل، إنه يساوي ثروة. لكننا لا نحبه لهذا السبب.

رفع نفسه إلى السرج، يثبت حذاء الركوب في ركابه.. لكن يديه كانتا خفيفتين على اللجام. أدار الجواد الكبير، ثم أطلقه ليعدو ببطء في الفناء نحو الحقل.. أطلقت حوافره الفولاذية قطع الحجارة التي تقع في طريقها.. اقترب الفتى ماتيوس من لويلا وهي تقترب من السياج لتراقب.. قال عابساً:

ـ إنه لا يترك أحداً يمتطيه.

سألته: «وهل ايليون بارع مع الجياد؟».

www.liilas.com

رد ساخراً بجهلها: «وكيف يبدو لك؟»

راقبت بصمت ايليون وهو يقود الجواد.. كان وقع حوافر ساتين كإيقاع طبول وثنية.

ارتدَّ نور الصباح فوق جلد الحصان البرّاق، فحدَّد معالم جسد ايليون وهو ينحني جاثماً فوق ظهر الجواد.. تسللت ابتسامة ساخرة إلى ثغرها المكتنز فقد تذكرت قوله: «سارت خيول أوكلاند مع جيوش البابوات وتسابقت مع اسطبلات الأمراء في أوروبا» ما أسهل تصوره أميراً من أمراء العصور الوسطى، الرمح في يده، يحث الفحل الأسود، بسرعة الصقر المنقض.

سألت مجدداً: «وهل هو لطيف؟ أعني مع الجياد؟»

لم يبد دهشاً من السؤال ورد بلهجة يوركشاير:

ـ أجل.. إن الجياد لا تحب من يعاملها بقسوة يا آنسة.. لقد عملت مع الجياد طوال حياتي، وأعرف انه لا يفقد صبره أبداً.. ولا يجبر جواداً على ما لا يريده، لذا ترين الجياد كلها تطيعه بطريقة غريبة.. بإمكانه دفعها إلى القيام بما يريد.

قالت بحزن: «هكذا إذن.. وهل هو «معلم» جيد؟»

ـ لا بأس به.

أقفل الفتى فمه وكأنه يقفل فخاً، فأخفت لويلا ابتسامة. فخلف هذا العبوس الشديد إعجاب شديد..

سأل: «ما رأيك بالجواد، آنسة؟»

هزت رأسها: «الجواد جميل..».

وكذلك فارسه، هذا ما أضافته بصمت لنفسها.. إنه أجمل بكثير من أي جواد بل هو أكثر حيوية.

ـ هل الجياد الموجودة هنا ملك لإيليون؟

ـ معظمها.. يضع السيد أوكلاند أفراسه الخاصة من أجل فحول المزرعة آنسة.

نظر إليها يريد التأكد أنها فهمت:

ـ إنه يختار أفراسه جيداً، وهذا ما يظهر أي صنف من الرجال هو.. أفهمت؟ إنه لا يلعب هذه اللعبة من كسب مادي فحسب.

نظرت إلى ما يحيط بها من ترتيب لا تشوبه شائبة:

ـ لا أراه بحاجة إلى المال.

هز مات رأسه الأشعث الشعر.

ـ هذا صحيح.. إنه أفضل من يقوم بهذه المهنة، لقد جعله هذا الجواد يكسب جوائز تفوق المليون جنيه، آنسة.. وهذا جزء بسيط إذا ما قورن بما يكسبه من الاستيلاد.

عندما عاد ايليون أخيراً والجواد يقفز خبباً نحوها، كان شعره الأسود مرتداً إلى الخلف، وعيناه بارقتين من المتعة..

قال مبتسماً: «إنه يعدو كالريح».

توقف أمامها ثم أضاف:

ـ لا أثر للمقاومة.. سأستدعي البيطري ليعاينه بعد الظهر.. أنجيدين امتطاء الخيل لويلا؟

ضحكت، والتوتر يغمرها بسبب وجوده.

ـ لا أمتطي جياداً كهذا.

قال واعداً: «ستمتطينها»

صدمتها الفكرة وباغتتها. لقد وجدت رجلي! لم يكن شعوراً بالخضوع أو السيطرة بل شعور يلامس شغاف قلبها.. لقد وجدت في ايليون الرجل القادر على دفعها إلى القيام بما يريد.. سيد، بل هو أكثر من سيد.. رجل قادر على رفعها إلى أعلى القمم.

وفيما كانت مسحورة بما أدركته لتوها، مدت يدها تلمس كتف ساتين القوية الناعمة.. قال ايليون وهو يمرر يده إلى جيبه.

ـ إنه دمث الأخلاق، فلا تقلقي.. لا شك في هذا، نظراً للحياة التي عاشها.. أعطيه هذا.

www.liilas.com

أخذت لويلا قطع السكر من ايليون، ومدت يدها بها. . كان أنف ساتين رطباً حاراً وهو يلتقطها بشفتيه، وفي عينيه تعبير جميل. على عكس النظرات المتوحشة التي شاهدتها في بعض الجياد. .

رددت في رهبة: «إنه حقاً جميل».

إن ايليون رجلها. . وستكون دائماً ملكاً له. لكن. . أيمكن أن يكون لها؟

مرر ايليون اللجام إلى مات، وترجل بسهولة:

ـ سنجد لك فرساً لطيفة لتتعلمي. . إنما ليس اليوم.

ربت على عنق الجواد بتحبب:

ـ أعده إلى الاسطبل، أرجوك مات.

سألته، والفتى يبتعد مع الفحل:

ـ هل استمتعت بهذا؟

وضع يديه على خصره ثم قوس ظهره متأوهاً:

ـ أجل. . لم أركب جواداً منذ أسابيع.

ـ مشغول بي. .

كان يبدو مهيباً على صهوة الجواد، حتى بدا لها أن من الصعب عليها ممازحته. . استوى في وقفته جيداً ثم نظر إليها نظرة خفق لها قلبها.

ـ من الأفضل أن نعود إلى المنزل الصغير. . لديك موعد مع الطبيبة في الثانية والنصف.

* * *

www.liilas.com

فراشة المحبة

٦ ـ صيد المشاعر

كانت الطبيبة شقراء في غاية الجاذبية في الخامسة والثلاثين من العمر، اسمها ماريسا برايس. . قالت للويلا عندما كانت تقوم بفحص شامل إنها نالت خبرة كاملة عن الإدمان في «ليفربول».

كانت هذه فرصة لويلا للتذمر أمام فريق ثالث مسؤول بالقول إنها كانت مسجونة رغماً عنها ولكنها لم تفعل بل يستحيل أن تفعل.

تظن الطبيبة على ما يبدو أن لويلا هنا بمحض إرادتها.

ـ لقد اخترت أصعب الطرق ولكنها أفضلها. لقد كنت فعلاً امرأة شجاعة.

أبعدت السماعة وكتبت ملاحظات:

ـ ما زال صدرك متعباً قليلاً. . وهذا متوقع. . لكن ذلك لا يستدعي أن أصف لك شيئاً، فأنت تسعلين وهذا كفيل بإخراج كل شيء.

أصبحت العينان الزرقاوان الجميلتان نافذتين فجأة:

ـ لا أظنك تعودين إلى الهيروبين، أليس كذلك؟. . فذلك يؤدي إلى استسقاء رئوي قاتل، لقد شاهدت مدمنين ماتوا بسرعة، والأبر في شرايينهم.

قالت لويلا بلطف: «لا داعي إلى إلقاء الذعر في قلبي لأنني لن أعود إلى الهيروبين».

انطلقت الكلمات منها قبل أن تفكر فيها. . بدا على الطبيبة الشقراء السعادة:

ـ أنت تعنين ما تقولين على ما يبدو.

فكرت لويلا متعبة: بالتأكيد أعني ما أقول فقد أصبح لديّ الآن ما أعيش من أجله.

قالت الطبيبة وهي تنظر إلى لويلا:

ـ يجب أن أرسل هذه الملاحظات إلى طبيبك الخاص.

فكرت لويلا بطبيبها العجوز الدكتور جيبسون، وقالت:

ـ أفضل أن يبقى الأمر سراً. ليس طبيبي الخاص بمتساهل مع الإدمان.

ـ فهمت.. حسناً، سنتحدث عن هذا لاحقاً.. وأنت؟ هل أنت مسرورة من نفسك؟

ـ لم أفهمك.

ـ هل عادت الثقة بنفسك إليك؟.

نظرت لويلا إلى يديها، كانت أظافرها بشعة. وهذا ما تشعر به الآن، بشعة قبيحة.. نظرت إلى الطبيبة وهي تهز كتفيها قليلاً:

ـ لا.. لا أشعر بالفخر من النفس.. لا. لقد كنت غبية بشكل لا يصدق. يصدمني أن أكتشف كم كنت حمقاء.

ـ ألا تثقين بنفسك؟ أعني، ألا تثقين بنفسك للعودة إلى الحياة الطبيعية؟

كيف لها أن تشرح العار والندم اللذين تشعر بهما أمام غريبة.

ـ أظن هذا.

لكن وجود ماريسا برايس لم يحرجها.. فهناك شخص واحد تحس بالخجل منه.. إنه الرجل الذي شاهدها في أثناء التجربة المخزية.. الرجل الذي يعرفها أكثر من أي شخص آخر.. أيمكن أن يحترمها ثانية؟ إنها لا تشك في ثقتها بنفسها، بل تشك في ثقة ايليون بها.

قالت الطبيبة، وكأنها تقرأ أفكارها:

ـ أعتقد أن ايليون ساعدك كثيراً؟

سحبت لويلا نفساً عميقاً:

ـ لقد كان...

ولم تستطع إتمام الجملة:

ـ مساعداً إلى أبعد حد.

شعرت من خلال التعبير الذي تراه على وجه الطبيبة أنهما ربما عشيقان ولكن المرأة كانت دبلوماسية، فلم تسأل..

قالت لويلا بابتسامة خفيفة:

ـ كان أبي وايليون صديقين حميمين ولهذا السبب اهتم بي.. التقيته للمرة الأولى عندما.. عندما.. دعاني للمجيء إلى هنا..

ـ أجل.. لقد حدثني عن والدك.. وأنا آسفة على ما أصابه.. كان موته صدمة كبيرة لك.

بدت الطبيبة برايس عاجزة عن صوغ الجمل.

ـ لم تستطيعي بسبب لجوئك الهيروين مباشرة أن تشعري بالحزن كما يجب. هل فهمت ما أعني؟ وهذا ما قد يفسر ميلك للاكتئاب الآن.. إنه الحزن على موت أبيك.. الذي وقع قبل بضعة أشهر، على أي حال.. أنا لست طبيبة نفسية.. لكنني أنصحك بألا تكبحي حزنك بل أتركيه يخرج.

بدأت توضب حقيبتها الطبية:

ـ أخبرني ايليون أنك تبكين بسهولة، وهذا أمر جيد على الأرجح..

هزت لويلا رأسها: «يجلب البكاء إليّ الراحة».

ـ ايليون رجل مميز.. أظنك لاحظت هذا. لديه قدرة مذهلة على إلهام الناس، وهذا ما يفسر جمعه للملايين.. كيف أقنعك بالمجيء إلى هنا وبالخلاص من الإدمان؟

قالت بطريقة لاواعية:

ـ لم يترك لي خياراً.. لا شك أنه ثري جداً.

ـ إن كل من يهتم بالخيول في العالم، ما بين «كنتاكي» في أميركا و«هونغ كونغ» في أقاصي آسيا يعرف ايليون أوكلاند.. عملت أسرته في

www.liilas.com

هذا العمل منذ قرون لا يعرف عددها غير الله.

ابتسمت تربت ذراع لويلا: «إن كنت باقية مدة طويلة فعليك أن تحيي الخيل.. على أي حال، أرى أنك تحررت من السموم بطريقة غير عادية لويلا.. لقد أنجزت شيئاً عظيماً. لا أقول هذا جزافاً.. لديك الآن ما تفتخرين به كثيراً. ظلي على ما أنت عليه الآن، ولا تنظري إلى الخلف».

أقفلت الحقيبة، وحررت شعرها من عقدته.. فبدت فجأة أصغر سناً.

ـ أراك ثانية بعد بضعة أيام.. تذكري ما قلته لك.. دفئي نفسي جيداً وكلي جيداً. لا تقلقي من الأحلام التي تشاهدينها.. سترين أحلاماً كثيرة مدة شهرين..

لحقت لويلا بالطبيبة إلى خارج غرفة نومها، تصغي إلى النصائح.. لم تفكر حتى اليوم في ايليون أوكلاند وحياته خارج هذا المنزل. وما اكتشفته هذا الصباح كان مثيراً.. ومخيفاً معاً.

سأل ايليون: «حسناً.. ما رأيك بها؟»

قالت ماريسا برايس بجد: «عانت كثيراً ولكنها أظهرت شجاعة غير عادية.. عاينتها جيداً، ولا أظنها تعاني من مشكلة جسدية.. ولكن، ما زالت بحاجة إلى الراحة، وإلى الوقت لتسترد كافة قواها».

قال ايليون بوقار:

ـ أظننا قادرين على توفير هذا لها.. وماذا عن الاحتمالات الطويلة المدى؟

ـ هذا عائد إليها.. أنت على حق بشأنها ايليون.. إنها شخص غير عادي أبداً. تبدو لي قوية الشخصية لذا ستشق طريقها جيداً.

لاحظت لويلا الطريقة التي كانت ماريسا برايس تنظر فيها إلى ايليون.. أله هذا التأثير في جميع النساء؟

قال بصوت ناعم: ستنجح.. لم أشك في هذا قط.. لم أشك البتة.

لكن لويلا كانت مكتئبة بصمت، متكورة في كرسيها. آه.. أجل..

لقد شفيت الآن تقريباً.. ولكن مشاكلها بدأت لتوها.

عندما جلبها ايليون إلى هذا المكان، كرهته.. لكنها تعرف الآن ما تشعر به نحوه.. ثمة ما هو مؤكد: إنها لا تريد أن ينتهي هذا الوقت الثمين.

أرادت البقاء معه هنا، تكرهه، وتحبه وتتشاجر معه، إلى الأبد. لا تريد أن تبتعد عنه، لا تريد أن تكتشف ما قد يحول بينها وبينه.. كالنساء والعمل.. أغمضت عينيها على أمل أن يبتعد عنها ما يخيفها.

إنه إنسان ثري معافى.. وماذا عنها؟ إنها إنسانة لم تكد تبدأ حتى أفسدت هذه البداية بشكل أخرق. لديها القليل، لا عائلة تتكلم عنها ولا شيء.. هل لديها ما قد تعرضه عليه؟

كانت الأيام التالية مليئة بإحساس متعاظم من العجب والدهشة. باتت لندن بالنسبة لها عالماً آخر.. منسياً وإدمانها ولّى أخيراً تاركاً إياها للتفكير في نفسها للمرة الأولى.

كانت ماريسا برايس على حق.. إنها بحاجة إلى الحزن على أبيها، وهذا ما أعطاها راحة لمشاعرها الدفينة.. بدأت الحياة تحمل الفرح لها مرة أخرى. فقد تحررت من الإدمان وحلت الحرية في قلبها وكيانها.

لم تتكلم قط بهذا القدر. كانت الكلمات تتدفق بغزارة ولكنه لم يتعب البتة من الإصغاء إليها.. أخبرته بتجارب وأسرار وبذكريات طفولة وهما يتجولان في الغابة، أو وهي تتعلم الفروسية على إحدى الأفراس في المزرعة. وجدت أنها تقول لإيليون أموراً نسيتها، أموراً لا تصدق أنها قد تقولها أمام أحد أبداً.

ساعدها التمرين على استرداد قواها بسرعة. وعندما جاءت ماريسا برايس لتعاينها في المرة التالية، قالت لها إنها جاهزة تقريباً لمتابعة حياتها العادية.. وعلقت كذلك على تحسن مزاج لويلا، وعلى ثقتها بنفسها التي بدأت تظهر في عينيها.

لكن ما زال لديها خوف عميق من أن تظل نظرة ايليون إليها نظرة

www.liilas.com

ازدراء أو شفقة.

بعد ذلك الموعد، وفي وقت متأخر من بعد ظهر يوم، أخذ ايليون قصبة الصيد من مكانها على الجدار، واصطحبها إلى النهر.. كان الغروب يسدل ستارته الهادئة الدافئة.

من غير الطبيعي أن تقف وسط المياه المتحركة بسرعة، كانت المياه باردة ولكنها لم تشعر بالبرودة.. عندما كادت تتعثر بالحصى المتزحلق تحت قدميها أسندها لئلا تقع، وقال متذمراً:

ـ ستخيفين السمك.. علينا أن نكون هادئين ببراعة.

همست: «آسفة».

أخذت قصبة الصيد منه وراحت تتحسس ليونة القصبة القوية.. أخذ النهر يدور في دوامات حول جسديهما قبل أن يتجه إلى الصخور على بعد قليل منهما..

قال هامساً: «ما زال يقفز إلى سطح الماء لالتقاط طعامه، حتى في مثل هذا الوقت من السنة.. سبق أن اصطدت سمك؟»

قالت بضعف: «اصطدت فرخاً من نهر التايمز مرة وكان والدي قد أعد الطعم».

ـ الصيد بالريشة أمر مختلف.. نحن هنا لا نعبث مع أشياء صغيرة.. في الواقع لا نستخدم طعماً يؤكل أبداً.

أظهر لها الريشة، كانت شيئاً صغيراً ريشها الناعم الصغير يشبه الحشرة والصنارة حادة كالإبرة، ولكنها مطوية إلى الداخل تحت ذيل الريش..

ـ هذه خدعة شريرة.

تفرس بالصنارة بعيني خبير:

ـ كما تصفين فعلاً.. أليس كذلك؟ حلوة المنظر، قاتلة عند الاختبار كبعض النساء اللاتي أعرفهن. حسناً.. حاولي دفعها لتحط تحت الشجرة، في الضفة الأخرى.

لوّحت بالقصبة كما أشار إليها فحطت الريشة بشكل أخرق على بعد خطوات منهما.. فتذمر ايليون:

ـ لا بأس، سأمرنك لتصبحي صياداً ماهراً.

نظرت إليه من بين أهدابها.

ـ صيادة ماهرة.. إن ذلك التعليق عن النساء كان ملؤه التعصب لجنس الرجال.

ـ حسناً صيادة، راقبي.

أرجع القصبة، ليقفز الخيط من فوق رأسيهما ثلاثين قدماً في هواء المساء. تحركت قليلاً قبل أن تستقر الريشة. راقبت لويلا حركة دائرية تحت الماء، وتمتم:

ـ ها هو.. المحتال العجوز نفسه. كنت أحاول اصطياده منذ ثلاث سنوات.. ولكنه كثير الريبة، لا يؤمن بأنه قادر على الحصول على شيء مقابل لا شيء في الحياة.

راقبت لويلا البقعة بذهول: «إنه على حق».

ترك ايليون الريشة تنجرف قليلاً، ثم أخذ يلف الخيط.

كان المكان أجمل بقعة رأتها في حياتها ففيها ذلك الهدوء المنقطع النظير، كانت الأشجار على ضفتي النهر تطرح أوراقها القرمزية اللون إلى الماء، واحدة إثر أخرى.. على بعد نصف ميل جسر حجري قديم هو صلة الوصل بين الضفتين وبعده ينعطف النهر، وهناك تبدأ الغابة العظيمة.

سألته بهدوء: «أتملك كل هذا؟»

هز رأسه، مركزاً نظره على القصبة: حتى الجسر.

راقبت رشاقة جسده يرمي الريشة مرة أخرى.

ـ كيف يمكنك تحمّل هذا الوقت الذي تقضيه معي؟.

أعاد ربط الريشة وعيناه ضيقتان:

ـ أمضي شهرين سنوياً في الإبحار.. أنا لا أترك عملي يسيطر عليّ لويلا.. إن تركته يسيطر، فقد يصبح النجاح وهماً.. أنا أقدر استقلاليتي

www.liilas.com

حق قدرها، ولا أترك ما يربطني..

لم تستطع إلا أن تسأل:

ـ وهل هذا ينطبق على النساء أيضاً؟

بدت عليه التسلية:

ـ يبدو أن فضولك بدأ يتعش.

قالت ووجنتاها متوردتان:

ـ السبب هو تعليقك الذي ذكرته بشأن النساء اللواتي عرفتهن. أهكذا تنظر إلى جنس النساء؟ جميلات إنما منكبات على اصطياد الرجال؟

ـ لم أقل إن جميع النساء كذلك بل قلت بعضهن فقط.

قالت تتحداه: «إذن عندك نساء كثيرات. ولا شك أن رجلاً مثلك قد جرح شعور العديدات منهن بل ربما جرح شعورهن جميعاً».

ابتسم ابتسامة ماكرة، كانت الزجر الوحيد على تطفلها:

ـ نحن هنا لاصطياد «السلمون». حاولي ثانية.

التفت ذراعاه حولها، ليعلمها كيفية الإمساك بالقصبة. في هذه المرة، طارت الريشة برشاقة فوق رأسيهما وهوت إلى المياه الساكنة على مسافة بعيدة:

ـ هذا أفضل بكثير.. أتركيها هنا، ولنرى إن كنت تخدعين الذكر العجوز.

راقبت الريشة تطفو فوق ماء النهر، تنتظر ظهور تلك الدوامة تحت الماء.. ولم تدرك أنه يتفرس فيها، حتى قال بصوت منخفض:

ـ أخيراً بدأت تبدين كما يجب أن تكوني.

ضحكت وهي تلتفت إليه:

ـ ماذا؟ في مداس عال، وسترة صيد مشمع؟

ـ لا.. بل بعينين صافيتين مفعمتين بالصحة وبالتورد على خديك.

أربكها التعبير في عينيه فتلاشت بسمتها.. أيقول لها إن الوقت حان لرحيلها؟

قالت بصدق: ما زلت أحس بضعف رهيب.. لا تنسى ما قالته ماريسا عن الراحة التي أحتاج إليها..

توقفت عن الكلام شاهقة، فقد أخذت القصبة ترتج بين يديها.. ولم تكن مستعدة جيداً للإمساك بالقصبة.

قال ايليون برهبة فيما كان رأس القصبة ينحني كالقوس:

ـ يبدو أنك التقطت النذل العجوز!

كان الخيط البراق يتسابق مسرعاً في الخروج من البكرة وكأن شيطان مياه غاضب يشده من طرفه الآخر.. دفعت القصبة إليه، تقول مرعوبة:

ـ خذها أنت.

ضحك: «إنه صيدك، لا شأن لي به».

ـ لكن.. لكن.. ما عساي أفعل؟

ـ أولاً عليك أن تبطئي اندفاع الخيط قبل أن يسحبه كله.

ـ كيف؟

ـ بيدك.

أحرق الاحتكاك راحة يدها، لكن اندفاع الخيط انخفض. فهز رأسه:

ـ جيد.. الآن حاولي لف الخيط على البكرة.

لم تصدق أن السمكة قد تملك مثل هذه القوة. فكلما نجحت في لف الخيط حول البكرة كان ذكر السلمون الغاضب يأخذ بضع ياردات.. رفض ايليون رغم توسلاتها أن يأخذ القصبة منها.. وظل يراقبها والمرح في عينيه.

ـ لا تدعيه يبتعد إلى ما وراء الصخور.. فقد يقطع الخيط.. لا تدعي الخيط يرتخي.. أتركيه مشدوداً لئلا يستطيع شده.

أحست في الدقائق الأولى، بالإرهاق. كانت المعركة تتجه لصالح السلمون باضطراد، ولم تكن لويلا معتادة على مثل هذا العمل. تألم ظهرها وكتفاها، فقالت متذمرة:

ـ لا أستطيع الإمساك به.. سيـ.. سيهرب!

www.liilas.com

صاح بها بشراسة: «إياك أن تفشلي! أحاول اصطياده منذ سنوات ارفعي القصبة يا فتاة!»

لا، لن تخذله. تكاد أنفاسها تختنق، شدت قصبة الصيد التي كانت ترتجف بين يديها غير الخبيرتين.. تفجرت على بعد خمسة عشر يارداً المياه عن قوس فضي مع قفزة لسمكة السلمون.. لمحت جنباً أرقط ناعماً، ثم اختفت السمكة التي شدت الخيط بشراسة.

شهقت: «يا إلهي! ما أكبره!»

مد يده يمسك بالبكرة:

ـ لكنك أكبر منه.. ابدئي بسحبه الآن لويلا.. شدي القصبة، ثم لفّي الخيط.. شدي ولفّي..

أطاعته خافقة القلب.. أحست كأنها تحاول سحب قطار فوق سكته.. ولكن المعركة بدأت تميل الآن إلى صالحها.. أخذت السمكة المقاومة تقترب منهما. أمرها ايليون بإلحاح:

ـ لا تتخاذلي الآن.

عندما أوشكت على الاستسلام هرع ايليون إلى المياه وفي يده شبكة حاضرة.. وفيما كانت لويلا تحاول منع السمكة من الهرب ثانية، كانت القصبة محنية كثيراً حتى كادت تسمع طقطقتها بين أصابعها.. فصاحت متوسلة:

ـ بسرعة.

أحست بأن قوتها تنهار وبأن ذراعيها تغدوان طريتين كالاسباغيتي.. أدخل بحركة رشيقة واحدة السمكة في الشبكة. فاختفى الشدّ الهائل عن القصبة، وما إن أصبحت السمكة في الشبكة حتى بدا أن المقاومة قد تلاشت منها، كانت مستلقية جامدة تسحب أنفاسها بسرعة.

قال لها ايليون بلطف: أظن أنكما أرهقتما بعضكما البعض.

بدا على وجهه تعبير غريب وهو يمسك بالسمكة التي يبلغ طولها يارد، بقوة إلى صدره لينتزع الصنارة من بين فكيها المفتوحين.

أحست لويلا وكأنها كانت تعدو في سباق الميل الأولومبي، فاسترخت نحوه متعبة. كانت السمكة مخلوقاً رائعاً يبرق لونه الفضي.

همست وهي تشد نفسها إلى ذراع ايليون، تحدق إلى الشبكة: ما أجمل هذه السمكة!

نظر إلى عينيها وقال بصوت أجش:

ـ إنها سمكتك. كانت معركة رائعة.

قالت وكأنها تتوسله: «وهل ستتركه يذهب؟»

لمس ظهر السمكة البراق.

ـ أجل.. «آبيانتو مون ڤيو».

راقبته مسرورة وهو ينزل السمكة إلى المياه. كادت الشمس تتوارى فبدت السماء بساطاً ليلكياً فوق الرؤوس.

شهقت السمكة مدة ثوان طويلة، ولم يتحرك فيها غير الخياشيم.. وكأنها لا تكاد تصدق حسن حظها، ثم ما إن استردت قوتها الهائلة حتى اندفعت من بين يدي ايليون، كالرمح نحو ساقي لويلا.

حاولت التراجع صائحة.. كان قاع النهر مليئاً بالحصى.. وقبل أن تعرف ما يحدث، انهارت إلى الخلف، إلى المياه الباردة. سرعان ما تبللت وسرعان ما شعرت بصدمة غير لطيفة لجهازها العصبي.

تخبطت بجنون، محاولة الوقوف، ثم انزلقت مرة أخرى.. أحست بأصابع ايليون تطبق على معصميها تجذبانها إلى الأعلى.. مسحت عينيها وهي تدمدم.. كانت ثيابها غارقة بالمياه ويقطر الماء البارد من شعرها إلى وجنتيها.

ابتسم بسندها.

ـ لا تجرؤ على الضحك..

ـ لن أبتسم ولو ابتسامة. هذا وعد شرف.. هل فقدت أفضل قصبة صيد عندي؟

فجأة أحست بأنها عاجزة إلا عن الضحك فجرت وراء القصبة. كانت

www.liilas.com

الضحكات تتوالى كما كانت الدموع تتوالى منذ أيام قليلة.

ـ هذه هي.. أنا آسفة..

أعطته القصبة.. فقال: «لا تأسفي على شيء أبداً. كنت رائعة هذه اللحظات».

في نبرة صوته ما جعلها تنظر إليه بسرعة. كانت عيناه قاتمتين إلى درجة السواد وكان الضحك ينبثق منها.

بدأت تقول: «ايليون...»

ولكنها لم تستطع إنهاء الجملة لأنه كان يجذبها إليه، وهو لا يعي شيئاً آخر.

لقد سبق أن عانقته إنما ليس بهذه الطريقة. شعرت بأنهما كانا ينتظران هذه اللحظة طوال حياتهما، لحظة طالما ناقا إليها..

رفعت ذراعيها لتعقدهما وراء عنقه. ثم شدت نفسها إلى عضلات جسده القوية.

أحست فجأة بضعف شديد فظنت أن النهر سيجرفها ولكن ايليون هناك يمسك بها بقوته، وسط التيار شبكتهما مشاعر مشتركة بأمان منيع. لم يجر بينهما كلام بل مجرد عناق اشتدّ عمقاً.

حضنها بقوة وحنان لم تشهدهما من قبل، وكأنها أجمل الأزهار العابقة برحيق أخاذ. أحست لويلا بروحها تفتح جناحيها في دفئه.

كان العناق بهجة لها وعذاباً.. أظهر لها ما كان مستتراً في أعماق مشاعرها منذ زمن بعيد.. وعندما همس بأسمها، رفعت بصرها إليه ضائعة وأخيراً عرفت أنه يشعر بما تشعر به.

كانت أشعة الشمس المتوارية تبرز اسمراره الذهبي ووميض عينيه الرمادي الذي يتناقض كل التناقض مع أهدابه السوداء الكثيفة وبريق شعره الأسود. عرفت أنها لم تعرف ولن تعرف رجلاً أوسم منه.. ايليون أوكلاند هو رجلها.. ولن يكون هناك غيره.. وإن لم تستطع أن تمتلكه، أن تجعله لها مدى الحياة، فستكون حياتها جرداء فارغة.

قال بصوت أجش: «هذا جنون. قد تصاب بمرض يؤدي إلى الموت».

ارتد يبحث عن القصبة التي كادت تضيع مجدداً.

قالت بحذر: «أجل».

اضطرت إلى التمسك به لئلا تنزلق من جديد في التيار.. ما الذي يحدث بينهما حباً بالله؟ أهذا ما يعنيه الحب، هذا الضعف الحلو الرهيب في الداخل؟

بدأت تحس ببرودة ساقيها.. كان مداس الخوض غارقاً بمياه باردة وأخذ الحذاء يخب خباً وهي تتحرك..

بدأت ترتجف:

ـ يا إلهي.. أنا باردة كالثلج.

ـ لا يدهشني ذلك..

ما زال صوته أجش، وكأنه يريد أن يمحو ما حدث قبل قليل ولكن لن يمحو شيء ما حدث.

أردف: «ما شهر تشرين الثاني بالوقت المثالي للسباحة.. تعالي».

أعطاها ذراعه لتتعلق بها وخاض بها الماء حتى الضفة.. كانت سعيدة بل أسعد من أي وقت مضى. تمتمت وهي تضع وجهها على كتفه القوي:

ـ هل تحس بالغيرة لأنني التقطت السمكة فيما لم تستطع أنت؟

قال هازئاً: «حظ المبتدئين».

رفعها بين ذراعيه ما إن بلغا المياه الضحلة الموحلة، وهناك حملها كمن يحمل طفلاً نائماً إلى سريره.. تعلقت بكتفيه وأسندت رأسها إلى صدره، ضائعة في النعيم.

قال: «ما يقلقني الآن هو التقاطك التهاباً رئوياً».

ارتجفت بقوة بغية المزيد من العطف.. ولكنها كانت مستعدة في تلك اللحظات بالمخاطرة بالتهابات رئوية إن كان ذلك يعني إطالة وقت

www.liilas.com

عناقه..

كانت ترتعش كثيراً عندما عادا إلى المنزل الريفي، وكان البرد يهاجمها بشدة.. فقرر ايليون بحزم:

ـ حمام ساخن.. اصعدي إلى المغطس، وأغرقي نفسك. سأشعل الموقد وأعدّ ما نأكله.

خلعت ثيابها المبتلة، ودخلت إلى المغطس الغارق بالمياه الساخنة. أحست بنعمة لذيذة وهي تسترخي في المياه المتصاعد منها البخار.. أحست بالألم في عضلاتها التي توترت في صراعها مع ذكر السلمون، وبألم عواطفها المتوترة.. بم شعر؟ هل كان ذلك لحظة رغبة؟ أم كان نابعاً من أعماق روحه كما كان الحال معها؟

أغمضت عينيها، تتذكر عناقه، شعرت بأنه يصبح جزءاً منها وما هذا بمجرد كلام. إنه يجري في دمها وفي قلبها وفي روحها.. ما تشعر به نحوه هو مزيج غريب من الرهبة والرغبة والحب والحاجة. إنه يصبح هوسها..

أحست بتعب جسدها، وبوهنه. لكنه الآن مستريح من المحنة التي مرت بها في الأيام الماضية. إنها كسمكة السلمون، تلقت الرحمة على يد ايليون..

إنها كالسلمون كانت عالقة بصنارة تؤدي إلى موت محتم حتى حررها ايليون.. وها هي كتلك السمكة أصبحت حرة الآن.. لم تكن مضطرة إلى القسم أو إلى التعهد، لم تكن مضطرة لأنها تعرف أنها لن تعود إلى المخدرات مهما كان السبب.

ليست هي الآن المرأة التي كانت قبل ثلاثة أسابيع. لقد تبدلت، تغيرت كلياً. قبل ثلاثة أسابيع، كانت تحتضر.. تسبر، وتتكلم.. لكنها من الداخل كانت تموت يومياً مع كل لفافة بيضاء صغيرة تشتريها..

أرعبها التفكير في الهيروبين الآن.. لم تشعر بشوق أو جوع إليه، بل باشمئزاز وحشي في قوته.. لقد تلاشى إلى الأبد ذلك التدمير الذاتي.

دلكت جسدها بالصابون تفكر في الطريقة التي حثها فيها باتريك على الهيروبين.. «هيا لويلا.. ستحبينه، سيلهب تفكيرك.. كيف ستكتبين عنه إن لم تجربيه».. طالما رفضت، بل طالما كانت قوية وطالما عرفت مدى الشر الكامن فيه.

لكنه انتظر حتى حانت الفرصة.. كان يعلم أنها إن تعاطت المخدرات فالمقالة التي تكتبها ستزول وينتهي أمرها. في الليلة التي عرفت فيها بمقتل والدها حوّلها باتريك إلى مدمنة.. هكذا، بكل بساطة.

لا.. لم تكن مضطرة إلى تجرعه.. ولكنها كانت مذهولة بحيث لم تستطع التفكير.

كان ما فعله باتريك بها وبآخرين أقل من جريمة قتل بقليل.. إنه القتل للكسب.. فلماذا بحق السماء ظلت قريبة من رجل كهذا؟

تذكرت للمرة الأولى كيف بدأ كل شيء.. كان باتريك غارنر يشبه بطريقة ما ذلك الصبي الذي عرفته في مطلع حياتها.. كان خطراً بكل ما في الكلمة من معنى، لقد بصق في وجه المجتمع واخترق القانون، كانت حتى وهي ترى وتكتب عن التأثيرات المميتة الرهيبة بتجارته تحس بافتتان نحوه، افتتان ثائرة مراهقة ضد المجتمع.

مجنونة!

ما أحقره! كاد باتريك، بمكره الشرير، يحطمها.. وكان ايليون أوكلاند هو من ردّها إلى الحياة.

في ايليون دفء ولطف، وطاقة مبدعة، لم ترها في أي شخص آخر.. وهي تريده.. تريده جسداً وروحاً، ليكون لها، لتكون حبيبته وزوجته مدى الحياة.

لتكون امرأته.

نظفت بشرتها الناعمة من الصابون.. أمن المعقول أن يحدث ذلك؟ إنه شيء تريده بإلحاح مخيف وقد تنجح. ولكن حتام تستطيع بعد إبعاد شبح فراقهما؟ أراد هذا الصباح أن يتكلم عن حصولها على عمل جديد.

www.liilas.com

أراد محادثتها عن مستقبلها.

مستقبلها!

خرجت من المغطس، متوردة، نظيفة. جففت نفسها جيداً، ثم نظرت إلى وجهها في المرآة.. أهي جميلة؟ قيل لها هذا مرة. بنية وجهها جميلة عيناها مذهلتان وثغرها مغرٍ. ولكن أيمكنها منافسة النساء الجميلات المغريات الذكيات اللاتي يتحلقن حوله يومياً؟ أولئك النسوة الجميلات الإنيقات؟

أرادت أن تريه كم هي جديرة بحبه..

كانت حقيبة يدها على المنضدة الصغيرة في غرفة نومها حيث تركتها منذ أيام.. خرجت إلى غرفتها، تلف نفسها بمنشفة كبيرة. فتحت الحقيبة مفكرة.. لم تستخدم أي نوع من مساحيق التجميل منذ أسابيع.. لقد شاهدها في أسوأ حالاتها، بشعر متشابك، ووجه أبيض، مخيف.

أفرغت الحقيبة على السرير تبحث في محتوياتها المتنوعة عن أحمر الشفاه، وظلال عيون وعن زجاجة عطرها الصغيرة «دورسيما».. ما هي مجموعة جيدة، لكنها أفضل من لا شيء.

كان التبرج كالقيام بطقس ديني منسي. أضاف اللون على شفتيها وعينيها، توترا مفاجئاً إلى جمال عينيها. لم يكن معها ما تلون به وجنتيها، لكنها ترفض خداعه. على أي حال إنه يعرفها خير معرفة وهي لا تريد إلا أن يلاحظها.

غيرت للمرة الأولى تسريحة شعرها الذي عقدته بشريطة حريرية صغيرة إلى الوراء، تاركة جناحين صغيرين، ينسدلان ليحيطا بوجهها.

كانت الكنزة الصوفية البيضاء التي ارتدتها في أول يوم على مجيئها نظيفة في الدرج.. أخذت تنورة رمادية تليق بها، تريد أن تكون ثيابها بسيطة وأنيقة.. وهذا ما تحب أن تكون عليه. فجأة أخذ قلبها يخفق بين ضلوعها.. فقد خرجت تبحث عن ايليون.

***

فراشة المحبة

٧ ـ أوهام وردية

كان قد أشعل أربع شمعات رفيعة، نورها الرومانسي أضاء وجه المائدة القديمة. في الوسط باقة ورد.

قالت وهي تغلق الباب وراءها: واو.

ـ إنه عشاء احتفالي.. يجب ألا يمر أول صيد سلمون لك سدى.. كدنا نأكل الذكر نفسه لولا عاطفتك.

ـ أنت من تركته يذهب.

ـ على أي حال، نحن مضطران للقبول «بالستيك».

كان قد غير ملابسه فارتدى سروالاً وكنزة سوداوين.. احتضنت الملابس عضلاته المفتولة وأبرزت رجولته. قال موبخاً:

ـ لا تقفي هكذا تحلمين. أحضري ما تبقى من أدوات الطعام من الخزانة فوق المغسلة.

رفع ايليون قطع اللحم عن الرف، ليضعها في مقلاة ساخنة.. تصاعدت رائحة متبلات لذيذة عبقت في أرجاء المطبخ.. أحست بجوع شديد فجأة. بعد بضع دقائق من التقليب نضجت قطع اللحم، فهاجمتها.

قالت تحكم وفمها ممتلىء:

ـ رائع.. هذا يعوّض عليّ ما حدث لي في الماء!

ابتسم: «ربما هي طريقة للانتقام للسلمون».

قطعت اللحم وقاطعته:

ـ هاك.. عرفت أنك تغار.

www.liilas.com

أعد السلطة أيضاً.. كانت الخضار الطازجة نظيفة في الطبق.. لم يترك حماسها للطعام يمضي بلا ملاحظة، فقال يعلق، وعيناه الرماديتان دافئتين:

ـ لم أرك تأكلين هكذا.. فلا أراك تمضغين الطعام حتى!

ـ وأنا التي أردت أن أكون متأنقة الليلة.. ها طبخك أفسد كل خططي.

تفرس فيها:

ـ متأنقة؟ أهكذا برأيك أريدك؟.

ابتسمت: حسناً.. أنت لست بريئاً.. ولا أراك ذلك الرجل الذي يفتن بتلميذة صغيرة.

ـ آه.. هذا يفسر أحمر الشفاه، والعطر.

إذن، لقد لاحظ رغم نور الشموع الخفيف.. أصبح قلبها غير مستقر بشكل غريب. فركزت بتصميم على الطعام، تسأل:

ـ ألا يعجبك؟

ـ تبدين جميلة خلابة، إن كان هذا ما تريدين أن أقول. لكنني أراك جميلة دائماً.

قلبت كلماته قلبها رأساً على عقب.. ولم يكن لديها رد جاهز.. فسألته وهي تعود إلى طعامها:

ـ متى التقيت أبي؟

ـ منذ ست سنوات.

ـ في أفريقيا؟

هز رأسه: «في الصحراء».

رفعت رأسها، وسألت بفضول:

ـ وماذا كنت تفعل هناك؟

ابتسم: «أتسوّق.. أنا أشتري الجياد من جميع أنحاء العالم لويلا.. أنا أبحث دوماً عن سلالة جديدة، ومصدر جديد للاستيلاد، أحب الجياد

العربية بسبب أصالتها ورشاقتها.. في ذاك الوقت أنقذ والدك حياتي».

سألت بحماس: «أبي».

رد بلطف: أجل.. أبوك الذي نعته بالتهور وبعديم المسؤولية.. كنت متوجهاً إلى عاصمة ذلك البلد عندما وقعت في يد قبيلة شريرة.

ـ أنت تمزح؟

ـ أبداً.. كنا نظن أننا في جزء آمن من البلاد.. ولكن خاب ظننا ووقعنا رهائن.

ابتسم هازئاً على تعابير وجهها.

أضاف: «كان كابوساً أكثر منه مزحة، كانوا مقتنعين بأننا جواسيس أميركيين. وبما أننا لم نكن نتقن لغة أهل البلد عجزنا عن إقناعهم بالعكس. فكان أن قادونا مئة وخمسين ميلاً إلى مقر قيادتهم، قرب الساحل، وأرسلوا يطالبون السفارة الأميركية في البلد بمليون دولار».

لم تستطع منع نفسها من السؤال بحماس:

ـ وماذا حدث؟

ـ قال الأميركيون إن لا شأن لهم بذلك، فلديهم ما يكفيهم من المشاكل.. ولكن عرف غريغ بأمرنا بطريقة ما وشعر بأن من مسؤوليته تحرير أبناء وطنه من النار.. فسافر في شاحنة في الصحراء، لمفاوضة الثوار على إطلاق سراحنا. وكان غريغ بذلك يخاطر مخاطرة كبيرة لأن الدولة كانت على قدم وساق في حرب مع جيرانها.. والمهم في الأمر أن غريغ تمكن من إقناعهم.

مدد جسده، وكأن عضلاته متشنجة.

ـ وهذا كله ليس بالأمر الذي قد ينساه المرء بسهولة. بعد ذلك، أصبحنا صديقين، ورحت آخذ بنصيحته.. كان يملك دائماً المعلومات المناسبة، والحكم المناسب.. ولكنني لم أتمكن من رد معروفه قبل أن يموت..

قالت متوترة:

www.liilas.com

ـ والآن سترد له معروفه كله. أتستخدمني لتريح ضميرك المضطرب؟

رد بهدوء وعدم اضطراب:

ـ نعم إن كنت تنظرين إلى الأمر من هذه الوجهة.. ما الذي يزعجك؟

ـ لا شيء.

أطلق ما قاله لها في نفسها مشاعر مختلطة متضاربة. الفخر بأبيها، والقلق على حياة ايليون.. وإحساس بخيبة أمل كانت كحد السكين في حدتها.

كان ذلك كله من أجل غريغ!

إن هذا اللطف، هذا الحنان، هذه التمثيلية المدروسة باتقان، الهدف منها تسديد دين والدها.. ليس من أجل لويلا بل من أجل غريغ.

عليها من الآن وصاعداً أن تذكر نفسها بأنها ليست هنا بسبب تأثره بها. إنها هنا فقط بسبب أبيها.. وإن كان ايليون لطيفاً معها أو فظاً فالسبب أبوها.

إنها هنا ضيفة مكرمة، ليس من أجلها بل من أجل شخص آخر.

قالت بفظاظة وهي تتجنب عينيه المتسائلتين:

ـ يا لها من قصة! أعتقد أنك تساويت مع والدي الآن؟

رد ببرود: «ليست المسألة مسألة مساواة، لم تكن قط بهذه البساطة لويلا.. أسعدني شفاؤك ولكنه لا يلغي معروف والدك عليّ. لقد قلت لك إنني أفعل ما أفعله من أجلك أنت لويلا».

ـ وليس من أجل أبي؟

ـ بطريقة غير مباشرة. توقفي عن الأسئلة الكثيرة، وكلي.

سألت بشفتين متوترتين:

ـ لكن ماذا تعني بقولك «من أجلي»؟ لا أفهم ما تعني.

ـ ولا أفهم لماذا تصرّين على هذه النقطة.

حاولت إبقاء صوتها خفيضاً رغم المشاعر الخطرة المتصاعدة في نفسها:

ـ ألم يخطر ببالك أنني أملك مشاعر خاصة بي؟ وأنني قد أريد منك أن تهتم بي من أجلي أنا لا من أجل ما فعله أبي منذ ست سنوات؟

رد بلطف: «لويلا.. قلت هذا مرتين.. مصلحتك مهمة بالنسبة لي».

ـ مصلحتي؟ لهذا رنين غير شخصي.. أنت تتكلم كأستاذ أو كمرشد اجتماعي.

قال بصبر: «لا أشعر أنني أستاذ أو مرشد اجتماعي.. كل ما قصدته التعبير عن اهتمامي، لا التعالي عليك».

ـ وماذا لو كنت بحاجة إلى ما هو أكثر من اهتمامك؟ بعدما تحررت من الإدمان فستتحرر أنت أيضاً من دينك، أليس كذلك؟ وسترغب في إعادتي إلى وظيفة في مكان ما لتشعر براحة ضميرك.. أليس هذا صحيحاً؟

لم يلمس طعامه، وقال بهدوء:

ـ أنت مجحفة، أراك متعبة.

ردت بغضب، تكبح الدموع:

ـ ربما أنا هكذا.. وإن نسيت ما حدث في النهر فأنا لم أنسَ لأنني أصبحت شديدة التعلق بك مؤخراً.

حدق إليها صامتاً. كان وهج الشموع ينعكس في عينيه. ندمت على الكلمات حالما تفوهت بها.. لقد خرقت أحد قوانينها الخاصة الرئيسية وهو عدم إظهار مشاعرها الحقيقية تجاه أحد.

ضحكت ضحكة ملؤها الألم ثم قالت بأنفاس مقطوعة:

ـ أنا آسفة.. ما كان عليّ قول ذلك!

رمى منديل الطعام على المائدة:

ـ إن ذلك أفضل.

وقف يمد يده لها وملء عينيه الجد:

ـ فلنجلس قرب النار لويلا.. أريد محادثتك.

www.liilas.com

كان قلبها يخفق بحذر وهما يجلسان قرب بعضهما بعضاً أمام دفء النار.. بدا الدبان القطبيان على الجانبين عابسين فذكراها بليلتها الأولى التي قضتها هنا في المنزل الريفي.

قالت بتعاسة: «أعرف ما ستقوله. ولكن، قله على أي حال».

رد بصوت لطيف، فيه دفء:

ـ نعم سأقوله.. يجب أن تفهمي أن مشاعرك تجاهي أمر حتمي لويلا.. لقد مررت في الأسابيع الماضية بتجربة هامة حاسمة، تحوّلت فيها من مدمنة إلى امرأة معافاة جميلة أمامها الحياة. أنت منفتحة للحب، وأنا أفهم ذلك أفضل منك بكثير..

ابتسمت بألم تقاطعه: «حب لا تريده أنت».

ـ أولاً، أنا أكبر منك بعشر سنوات.. ثانياً، إن فعلت ما تريدين أكن إنساناً يستغلك بأبشع الطرق.

سألت بلهفة: «لماذا؟»

ـ لا تكوني سخيفة.. لا شك أنك تعرفين أن مشاعرك تجاهي مشاعر واهمة. لقد انحجزنا معاً مدة أسابيع.

ابتسم متعباً: «بعد أسابيع وبعدما تستأنفين حياتك العادية فستنظرين إليّ بمنظار آخر.. أتمنى أن تنظري إليّ دائماً على أنني صديق قديم. أعرف أنك لن تعتبريني أكثر من ذلك».

ـ صديق قديم.. أتظن أنني لا أعرف عما أتكلم؟ وأنني مشوشة بحيث أعجز عن معرفة ماهية شعوري الحقيقي تجاهك؟

رد بصراحة: «أجل.. هذا ما أعنيه.. لقد أوذيت في حياتك كثيراً لويلا.. ولا أظنني قادراً أبداً على المخاطرة بأذيتك أكثر من ذلك».

سألت بجفاء: «وإن لم يكن الأمر كما تعتقد.. لو التقينا في ناد ليلي أو في حديقة عامة فكيف يا ترى سيكون شعورك نحوي؟»

ـ لا فائدة من الافتراضات.. نحن نتحدث عنك وعني في الوقت الراهن.

ردت بمرارة: «لا.. هذا غير صحيح.. أنت تتجنبني دائماً.. أعرف أن دافع ما فعلته سام وهو رد جميل أبي، وأعرف أنك لن تستغلني أبداً».

سحبت نفساً مرتعشاً واعتمت عيناها تأثراً بمشاعرها.

ـ ألا تفهم كم يؤلمني هذا ايليون؟ كنت أتوق طوال حياتي إلى شخص يهتم بي من أجل ذاتي.. أنا لا أطلب منك أن تحبني..

سأل حالما توقفت عن الكلام:

ـ ماذا تطلبين إذن؟ أتريدين ببساطة أن تحولي إدمانك من الهيروبين إليّ؟

قالت بهدوء:

ـ هذه قسوة.. لا أطلب منك إلا عدم التراجع فإن كان في نفسك شعور تجاهي فلا تخبئه خلف ستارة من المبادىء الأخلاقية.

ـ أنت تميلين للهزء من المبادىء الأخلاقية التي تكون أحياناً مهمة أكثر من أية أحاسيس أخرى في الدنيا.

قالت عن غير ثبات: في هذه المرحلة من عمري أجد أن الأحاسيس ما أحتاج إليه لأستمر في الحياة. أنا لا أحاول أن أكون مأساوية ايليون.. فأنا أعيش في فراغ الآن. لا أعرف إن كانت كلماتك وعناقك، موجهتان لي أم تعتمدهما بسبب كرم أخلاقك.

أغمضت عينيها تضحك مرتجفة:

ـ آه! أنت في غاية الكرم.. رجل طيب.. أفضل رجل عرفته.. لكنك لن تستطيع معاملتي برقة أربعاً وعشرين ساعة يومياً.. أنا لا أمانع إن لم يكن هناك شيء.. طالما أعرف ما هي مشاعرك.

كان في ابتسامته لمحة نحد:

ـ حسناً.. أنا أهتم بك، هل اكتفيت الآن؟

ـ إذن أحضني.

هزت رأسها عندما رأت تعابير وجهه ثم أردفت:

ـ أنا لا أحاول رشوتك هذه المرة.. بل أريد منك حقاً أن تحضنني!

www.liilas.com

التهبت عينا الفهد لحظة، ثم رقتا.. تقدم إليها يحتضنها بين ذراعيه القويتين.. تنهدت وهي تضع خدها على كتفه..

همست، غير واثقة أنه سيسمعها:

ـ أحتاج إليك كثيراً.. أنت كل شيء لي، ايليون..

أمسك وجهها بين يديه، وعانقها عناقاً تأرجحت منه مشاعرها.. ولكنها شعرت فجأة بالخوف، وأخذ جسدها يرتجف كما حدث لها في الليلة الأولى التي جاءت فيها إلى هنا.

تمتم بصوت أجش: «أنت ترتجفين كالعصفور.. هل أخيفك؟»

ردت بصوت خفيض: «تخيفني».

ارتدّ عنها ليقول بصوت مرتعش:

ـ لا!.. أنا أعني ما أقول لويلا.. اللعنة.. ألن تتعلمي كيف تحمين نفسك؟

أبعد يديها عن عنقه بأصابع قوية، فهمست وهي تنظر إليه بعينين ملؤهما الضباب:

ـ وهل أنا بحاجة إلى حماية نفسي منك ايليون؟

قال بوحشية تقريباً: «لا تنظري إليّ هكذا».

توجّه إلى النافذة، يضع يديه في جيبيه، يحدق إلى الظلام خارجاً. ثم أردف بصوت أجش:

ـ كان يجب أن أعرف.. كان يجب أن أعرف ما سيحدث لنا.

ارتدَّ إليها بوجه متجهم:

ـ الواقع أنك استعدت عافيتك لويلا.. لذا كلما أسرعت في العودة إلى حياتك القديمة كلما كان ذلك أفضل لكلينا.

* * *

توقعت لويلا أن يكون ايليون بارداً معها في اليوم التالي، وكان كذلك أكثر بقليل من مهذب.. ولم تكن هي نفسها تشعر بالفرح.. كانت تشعر بالمهانة لأنه رفضها. لماذا لم تقفل فمها ليلة أمس..؟ ألن تتعلم أبداً؟

كان مضطراً للذهاب إلى مزرعة الاستيلاد ذلك الصباح لمقابلة زبائن، أما دعوته إياها لمرافقته فكانت أكثر من أمر.

قال خلال الفطور: طلبت من مات تسريج الفرس سبرنغ لك هذا الصباح هذا إن كنت راغبة في امتطاء الخيل.

قالت محاولة الابتسام: شكراً.. لكنك غير مضطر للتفكير في تسليتي ايليون.

قال وكأنه يقرر أمراً واقعاً:

ـ أنت تُظهرين بشائر نجاح.. أنت جيدة مع الجياد، ويجب أن تستمري بامتطائها بعد عودتك إلى لندن.

عرفت أنه تعمد قول هذا، ليس ليؤلمها، بل ليهيئها نفسياً إلى اقتراب نهاية هذه الحياة الريفية الكسول.. لكن الكلمات جرحتها وجعلتها تنتفض ألماً على الرغم من قرارها بألا تحمله المزيد من الأعباء العاطفية.

ارتدت تنورة وبلوزة قطنية وهي ملابس تتناقض كل التناقض مع الجينز الأزرق القاتم والقميص اللذين ارتداهما.

تمتمت وهي تتأمل شكلها في مرآة الردهة:

ـ لم أصفف شعري منذ أسابيع.. يبدو غير مرتب.

تلاقت عيونهما في المرآة:

ـ أحب شعرك هكذا.. الشعر الجميل لا يحتاج إلى عناية كبيرة.

وخرج إلى السيارة.

قالت لصورتها في المرآة:

ـ الشعر الجميل لا يحتاج إلى عناية كبيرة.

هزت كتفيها، ولحقت به.

قال وهما يخرجان في السيارة:

ـ سأريك المنزل الكبير حالما أنتهي.

هزت رأسها شاكرة، فنظر إليها: «هل أنت بخير؟»

ـ بخير.

www.liilas.com

ـ سأغيب عنك ساعة لويلا، بعدها أجدك في الاسطبل.

هزت رأسها مجدداً.

كان الطقس زمهريراً. شمس الصباح ما تزال منخفضة، والشجر يرمي ظلالاً مستطيلة فوق الحقول غير المزروعة.. راقبت لويلا بشرود ظلهما وهما يسيران في الفناء. شخصان منفصلان، لا يربطهما غير المسير في الاتجاه نفسه صدفة.

عندما رفعت نفسها إلى ظهر الفرس، كانت الدموع قريبة من مآقيها.. ما يمكنها أن تتوقع من ايليون؟ الواضح أنه لا يثق بها، ولن يثق بها أو يحترمها. ما كان عليها أن تبوح أمامه بشيء عن مشاعرها، كان من الحكمة أن تحفظها لنفسها.

قادت «سبرنغ» تحت أنظار ماتيوس فوق العشب، تتساءل كيف لها أن تعيش بدون ايليون..

قال ايليون وهما يسيران على الدرج الرخامي وصولاً إلى باب المنزل الرئيسي:

ـ امتلكته أسرة ميتكالف منذ أجيال حتى انقرضت منذ خمسين سنة.. ظلت مزرعة الاستيلاد مستمرة على يد المزارع الذي اشتراه منهم، مستخدماً فقط عُشر طاقة المكان.. لكن المنزل نفسه ظلّ فارغاً مهملاً كثيراً حتى كاد منفذ الوصية يهدمه.

تأملت لويلا الواجهة القديمة الرائعة، وشهقت:

ـ لا! ومن يقدر أن يدمر شيئاً كهذا؟

ابتسم:

ـ هذا كان شعوري.

كانت عيناه تتجولان على طول قدها النحيل، وقال هامساً: «بدأ وزنك يزداد».

سألت بلهفة: «وهل بدأت أميل إلى السمنة؟»

أبعد نظرته عنها، وكأنما بجهد:

ـ لم أقل هذا. تعالي.

وراء المدخل المسقوف كان المنزل الكبير فارغاً تقريباً. فيه الصمت شديد.. قال لها وهما يسيران في الداخل:

ـ لم يعد بحاجة إلى عمل كثير.. ولكن إنقاذه استلزم جهداً... لقد أنفقت عليه حتى الآن ضعف ما يستحق.

كان فوق الموقد الجمرية لوحة زيتية كبيرة، فيها جواد أسود يقبع خلفه بوضوح منزل «ميتكالف هال».

سألت لويلا:

ـ أهو ساتين؟

هز رأسه إيجاباً، وأردف بصوته العميق الذي تردد صداه في أرجاء المنزل:

ـ انتهى إصلاح الطابق الأرضي والطابق الأول أيضاً وإن كنت محظوظاً انتهى الطابق العلوي في آذار القادم.

راقب التعابير في عينيها النجلاوين الدهشتين. استوعبت ما قاله بصمت، تلحق به عبر الغرف الفارغة الرائعة.. يكسو كل مكان في الأرض خشب جميل براق. رأت أن جدران غرف عدة مكسوة بخشب السنديان والماهوغوني فيما بعضها الآخر تغير ديكورها حديثاً. هنا وهناك، كانت لوحات «الكانڤا» معلقة فوق المدافىء الحجرية.

قالت لويلا هامسة: «إنه مذهل».

التفتت عيناه إليها مرة أخرى: «أعجبك؟»

ـ بل أحببته!

مد يده يداعب خدها بخفة، ثم أعاد يده إلى جيبه.

ـ حينما اشتريت الأملاك، كان في المنزل كمية ضخمة من اللوحات والأنتيكات.. كان بعضها غير ذي قيمة، ولكن معظمها كان صالحاً ومعظمها الآن مخزون في القبو، بانتظار أن يجهز المنزل.. أما الأشياء الجميلة حقاً، فيجري إصلاحها.

www.liilas.com

ـ سيكون مكاناً مذهلاً . . هذا منزل يحلم به جميع الناس.

ـ إنه بيت بكل ما للكلمة من معنى. كان وسيبقى منزلاً مميزاً.

أردف وهما يدخلان إلى الغرفة الأخرى.

ـ هذه التماثيل المنحوتة هي للنحات «موريس ڤانديك» الفرنسي الشهير.

لحقت عيناها بعينيه. . في النافذة الناتئة الكبيرة تمثال برونزي لفرس ولفلوها وهما يقفان بانسجام تحت أشعة الشمس. التقط الفنان شعور الفرس بالحماية تجاه وليدها، ببراعة تكاد تبلغ السحر.

قالت بصوت هامس، تتلمس البرونز البارد.

ـ إنه جميل.

أحست بتأثر غريب لأنه اختار هذه القطعة الفنية. فقد عرفت أنها تعكس حب ايليون للجياد، بل أكثر من هذا، تعكس رغبته الخاصة في جعل «ميتكالف هال» بيتاً له، تسكنه عائلته وتملأه ضحكاً ومرحاً. . ترى أية امرأة قد تشاركه إياه؟

اقتادها إلى نافذة ناتئة مرتفعة في الجانب الشرقي. . وأكمل بشرح لها:

ـ كانت العزبة هنا مركزاً للجياد. أنتجت المزرعة أفضل جياد السباق في انكلترا. . وأنا الآن أعمل على أن تقدم نسلاً أفضل مما سبق.

نظرت إلى الخارج. . كان صف من الجياد البراقة يتحرك في الحقل الفسيح. بدا فتيان الأسطبل الصغار متدثرين بالثياب السميكة اتّقاء البرد. تقدم ايليون ليستند إلى عتبة النافذة إلى جانبيها، فذكرها اقترابه منها بألم ليلة أمس.

أشار إلى الحصان القائد: «ذاك هو «وندسيل». إنه من أفضل الجياد في البلد. بيع مهره في كنتاكي بمليوني دولار ونصف في مطلع هذه السنة».

صاحت برهبة: «واو».

كان على وجه ايليون الفخر ولكنها عرفت أنه لا يشعر بالفخر بسبب المال. . بل بسبب العمل على تأصيل الحيوان وهذا ما يتحكم بالسعر.

رفعت نظرها إلى الوجه الذهبي، تتوق إليه من كل قلبها.

ـ أنت تحب الجياد حقاً. . أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ أكثر مما قد تحب امرأة؟

ـ هذا سؤال امرأة. . إنه حب مختلف «لويلا». . الجياد هي حياتي العملية، ولكن لن تتنافس مع حياتي العاطفية.

عقد ذراعيه، ونظر إلى الحقل يراقب فرساً كستنائية تعدو بخفة وبطء نحو السياج.

ـ انظري إلى هذه الفرس قمت على تأصيلها منذ خمس سنوات، دربتها وهي في السنة الأولى من عمرها ثم دفعتها إلى السباق وأخذت أراقبها تكبر حتى أصبحت فرساً مميزة في السباق. رأيتها تربح السباق تلو السباق. . وها هي الآن قد عادت إلى المزرعة لتعود إلى ديارها. أنا أقوم بهذا العمل من أجل الرضى الذي يحمله إليّ.

نظر إلى لويلا، التي كانت تنظر إلى جمال الحيوان الخالي من العيوب.

ـ يجب على المرأة التي أتزوجها في النهاية ألا تتنافس مع عملي. . بل عليها أن تفهم ما يعنيه لي.

رافقها إلى الطابق العلوي حيث عبقت رائحة الدهان. حاولت لويلا أن تحسب المبلغ الذي أنفقه على هذا المنزل. إنه مئات الآلاف. . لقد حقق ايليون الثروة والسلطة، التي لا يحلم بها غير قلة من الرجال.

كانت إحدى غرف النوم الضخمة في الطابق الأول مفروشة. قال رداً على التساؤل في عينيها:

ـ إنها غرفتي. أنام أحياناً هنا.

دخلت ببطء. كانت السجادة الرمادية ناعمة تحت قدميها، في الغرفة

www.liilas.com

سرير مرتفع القوائم وخزانة ضخمة ولوحتان، أما ما تبقى من أثاث في الغرفة فذوق رجل. لكن الواضح أنه غالي الثمن..

أغمضت عينيها لحظات وهي تحس بالرغبة والحزن يختلطان في نفسها ليشكلا إحساساً واحداً لم تستطع تسميته.. تحرك ايليون إلى طاولة قابعة قرب النافذة، وفتح درجها.

ـ هذه لك.

أخذت الصورة منه.. كانت صورة ملونة لرجلين ضاحكين جالسين على مائدة في مطعم. والدها وايليون. حدقت إلى الصورة ترى المحبة الظاهرة بين الرجلين.. كادت تسمع ضحكة أبيها الصادقة. تصاعد إلى نفسها شعور بالحزن. يا للخسارة.. يا لضياع فرص كثيرة.

قال ايليون: هذه صورة التقطت لنا قبل سنتين في حفلة عيد ميلاد.

قالت بأسى: ليس عندي صور كثيرة له.

ـ وأنا أيضاً.. لم يبدُ لي الأمر مهماً في ذلك الوقت.. لقد تكلمنا عنك كثيراً يومذاك.

ترقرقت عيناها بالدموع ثم قالت بصوت مرتجف:

ـ أنا.. آسفة.. لا أظن أن معي.. منديلاً.

مرر لها منديله، فحاولت إيقاف الدموع وحبسها.

ـ اجلسي قليلاً.

جلست على حافة السرير ثم جلس ايليون قربها. وضع ذراعه حول كتفيها يهدىء روعها، فأسندت رأسها إليه تتنهد وقالت بصوت منخفض:

ـ إنني آسفة على شيء واحد وهو عدم التعبير له عن مدى أسفي على تصرفاتي الماضية.

ابتسم ايليون: أظنه كان يفهمك أكثر مما تظنين، وطالما آمن بك.

تذكرت: أنت تشبهيني أكثر مما تتصورين، لويلا.

نحّت الذكرى بعيداً عنها، واعتذرت وهي تجفف عينيها:

ـ آسفة على بكائي.. لم أرد أن أظهر ضعفي.

ـ لست ضعيفة.

تلاقت عيونهما، فأحست بشيء يتحرك في قلبها وعرفت أن الشيء ذاته يتحرك في داخله.

همس وكأنما لنفسه:

ـ يا الله.. أنت جميلة جداً لويلا.. يبدو أنك تتفتحين قليلاً كل يوم، كالزهرة.

كان عناقهما ناعماً كزغب الطير الصغير.. أمسك وجهها بين يديه.

همس لها: «ماذا تفعلين بي؟ أنت تسحرينني لويلا..»

لفهما صمت المنزل الكبير بهدوء ومحبة.. أحست أن لا لجام قد يكبح حبهما الآن.. فشبكت أصابعها في شعره الأسود، أما هو فأمسك وجهها بين يديه وقال بصوت أجش:

ـ ما أجملك! أنت أجمل مما كنت أتصور.

همست: «وأنت رائع..»

ابتسم لها وجهه المغشي بالعواطف:

ـ أما زلت أخيفك؟

ـ أكثر مما مضى.

كان الوقت متأخراً بعد الظهر. كانت أشعة الشمس تبرق على ورق الجدران الأحمر في غرفة النوم.. توقف الوقت عن أن يكون ذا أهمية.. كانت وايليون عالقين في بئر من السكون لا قرار له غير مشاعرهما المتبادلة. لن تنسى أبداً هذا الظهر.. ليس فقط بسبب عناقهما بل بسبب الشعور الفريد الساحر الذي يسيطر عليها.

فجأة ابتعد عنها يسأل: «بم تشعرين؟».

ابتسمت: «ليتني أعرف».

لم يرد ابتسامتها، بل نظر متفرساً في وجهها، وكأنه يحدق إلى بئر عميقة.

قال لها: «تعرفين أن هذه النهاية».

www.liilas.com

هزت رأسها تناقضه: «بل البداية».

التفت لينظر إليها من فوق كتفه.

ـ اللعنة.. ما هو هذا التهور المجنون الذي يجعلك تقولين أشياء كهذه؟

ابتسمت بحزن: «إذا كان ما أشعر به هو الجنون، فلا أريد إذن أن أكون سليمة العقل بعد الآن».

قال بتصميم هادىء: «آن لك أن تبدئي حياتك من جديد.. وستعودين إلى لندن، في الغد».

لم تصدمها كلماته ولكنها آلمتها، إذ توقعتها بطريقة ما. سألته بصوت هامس:

ـ لماذا؟

ـ لأنه لم يعد لديَّ ما أقوم به من أجلك، وعليك من الآن فصاعداً البدء بشق طريقك بمفردك.

هبّ على قدميه يمسد بنطلونه على خصره النحيل.. قالت متوسلة:

ـ ايليون...

لكنه وضع أصابعه على ثغرها يسكتها:

ـ كما ترين كدت أفقد السيطرة على نفسي لذا من الأفضل لنا الافتراق بأسرع وقت ممكن.

أحست بالكرب يشد كل عصب في جسدها، وسألت متألمة:

ـ وكيف أعيش بدونك؟

ـ إنه سؤال ستضطرين إلى الإجابة عنه بنفسك.

راقبت عضلاته تتوتر:

ـ ما فعلته لك حتى الآن كاف. أنا لا أريد علاقة حب معك لويلا.. أنا آسف.

التقت عيناه عينيها، فغضت طرفها تغشي عينيها الدموع.

ـ وأنا آسفة أيضاً.

كانت آسفة كما لم تكن يوماً، آسفة لأنها تعرف أنه مخطىء.. آسفة وسقيمة وحزينة، لأنها تعرف أنه لن يغير رأيه بشأنها..

قالت تتوسل إليه:

ـ لمَ لا تمهلنا فرصة؟ لماذا لا تعترف بأنك قد تكون مخطئاً بشأن رأيك بمشاعري فأنا أحبك فعلاً وسأحبك أينما، وحيثما، وكيفما التقينا؟

قال، بوحشية تقريباً: «لماذا لا تكبرين؟ أنت لا تحبينني بل تشعرين بالامتنان لي وليس هناك أساس لأية علاقة لويلا.. لا تخلطي بين العرفان بالجميل والحب يا فتاة. إنها أقدم غلطة في التاريخ».

نظرت إلى وجهه الوسيم متوترة ثم سألت:

ـ لماذا تتكلم بهذه القسوة عن الأمر كله؟

رد متجهماً: لأنني أحاول ببساطة إعادتك إلى الواقع.. كان في عينيك مؤخراً آلاف النجوم التي حجبت عنك الرؤية بصفاء.

ردت بمرارة: هكذا إذن.. ومن برأيك وضع كل هذه النجوم في عينيّ أصلاً، ايليون؟

ـ لا تلوميني على أوهامك.. لقد حذرتك بوضوح مراراً.

لم يكن في عينيه دفء.. ردت: «ليس حبي لك وهماً».

ـ لقد اخترت ملء رأسك بغيوم وردية رومانسية لويلا.. وهذا وهم بحد ذاته.

حاولت إبعاد مشاعرها عن صوتها، لأنها لا تريد منه أن يعرف كم تتألم:

ـ وهل هذا صحيح؟ وهل عناقك إياي قبل قليل من بين الأوهام الوردية؟

قال بصوت بارد: «اسمعي! من الأفضل أن ننسى ذاك العناق إلى الأبد».

قالت بصوت متحد لتتغلب على ألمها بالسخرية:

ـ لن يكون هذا سهلاً كما تتصوره أنت، على المرأة والرجل أن يتحابا

www.liilas.com

لتزغرد عواطفهما كما زغردت عواطفنا، لينسجما كما انسجمنا.

التوى ثغرها بابتسامة ساخرة:

ـ أم أن في عينيك نجوماً أنت كذلك؟

أقفل وجهه وكأنه باب موصد، وقال بحدة:

ـ كنت أحمق لكنني عدت فتداركت حماقتي.

ـ ربما أخطأت عندما اعتقدت أن مشاعرك صادقة.

ـ لا مجال «لربما» في الأمر.

وقفت بصمت. عندما تحركت لاح لها الشر الذي كان يجول في عقلها منذ أسابيع، وها هو يتخذ فجأة شكلاً مظلماً. عصفت الحقيقة في مشاعرها كريح باردة عصفت في نباتات ضعيفة. لم يكن لدى لويلا وهم بأنها النهاية. إنها تعرف ايليون معرفة كافية تجعلها تفهم أنه يعني كل كلمة قالها.

كم مرة عليها أن تتعلم وقائع بسيطة في سياق حياتها؟ قالت باختصار:

ـ يبدو أنني كنت مخطئة بشأنك.

كان لمعان عينيه كبريق حد سيف في أشعة الشمس. لكن صوته ظل هادئاً:

ـ هذا ما يبدو. أعتقد أن مشاعرك تجاهي أوهام تافهة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة.

ـ لا تقلق. لقد تجاوزت مرحلة الأوهام ايليون، وقد تكتشف أنني قد أكون أقسى قلباً منك.

سحبت نفساً مرتجفاً لتحاول كبح مشاعرها. الشجار مع ايليون مؤلم. وهي الآن تود لو تتغلب على الألم الذي ينتظرها بأسرع وقت ممكن.

أضافت: «كنت صادقاً على الأقل، فأنا لم أعرف حقيقة مشاعرك حتى الآن».

عاد إليها ويداه في عمق جيبيه:

ـ الآن أمامك طريق تشقينه بنفسك. إنسي أمري. فلست بحاجة إلى أعباء إضافية كالحب في هذه المرحلة بل أنت بحاجة إلى تركيز النظر على السير في طريق مستقيم. لديك ما يشغلك يا فتاة. إيجاد وظيفة جديدة، مصالحة أمك وزوجها، العودة إلى حياة نافعة، فرد جناحيك. لا تظني أن هذا يدوم إلى الأبد!

قالت بصوت مختنق:

ـ ليت هذا ممكناً. ما كنت لأريد شيئاً آخر ايليون. ولن أريد.

ضحك بعذوبة:

ـ أنت لا تعرفين كم من أشياء رائعة قد تحبينها في هذا العالم.

أخذت تبكي ولكنه لم يلاطفها، وسألت:

ـ هل.. سأراك مرة أخرى؟

قال بلطف: «ربما عندما تتوقفين عن الحاجة إليّ».

ـ لن يكون هذا أبداً!

ـ بل سيكون قريباً.

بكت: «آه.. ايليون.. أشعر أنني ضائعة..»

ـ أنت لست ضائعة بل أنت على الطريق القويم الآن. لن تعودي أبداً للمخدرات. من الآن وصاعداً، ستكون أمورك على أحسن ما يرام.

ضغطت يديها على قلبها المحطم.

قال وهو يضع ذراعه حول كتفيها:

ـ تعالي، لويلا.

سار بها إلى النافذة فرأت غابة «داركرايسنغ وود» تنبسط بعيداً أمامهما..

قال بهدوء:

ـ الغابة جميلة، مظلمة، وعميقة.. لكن لديك وعود عليك أن تفي بها وأمامك أميال تجتازينها قبل أن تنامي.

www.liilas.com

٨ ـ فتاة الثلج

قفز ليونارد بلات وراء الكرة، ووصل إليها بصعوبة فأمّن بذلك للويلا فرصة لترسل ضربة قاتلة.. فأرسلت الكرة السوداء الصغيرة إلى زاوية بعيدة في ملعب «الأسكواش» وملؤها الرضى.

لم يحاول ليو السعي وراء الكرة.. بل اتجه إلى حقيبة أدواته، لاهثاً، ليجفف وجهه من العرق.

قال متذمراً وفمه مكتوم بمنشفة نادي «لانكستر».

ـ اللعنة.. انني مرهق.. أنت في غاية الكفاءة ستيرلنغ.

قالت بخبث وهي ترنّح المضرب بقبضة يدها:

ـ إنها مسألة دقة النظر.

كانت مقطوعة الأنفاس إنما ليس كثيراً. لم تكن تمزح عندما أردفت:

ـ أترغب في جولة أخرى؟ ما زال الملعب لنا ربع ساعة أخرى.

نظر ليو إلى لويلا، متأملاً ساقيها المديدتين النحيلتين وتنورتها البيضاء النقية الملساء.. قال بفظاظة:

ـ شكراً.. لكن لا.. لقد نال غروري ما يكفي من ضربات هذا الصباح.

قالت تتهمه: «السبب هو نهايات الأسبوع الماجنة التي تمضيها».

تقدمت إلى حقيبة العدة ثم أضافت:

ـ أسحقك كل يوم اثنين وتسحقني كل خميس.

ـ أنت تلعبين بكل ما أوتيت من قوة. لماذا لا تكونين من النساء

الدبلوماسيات اللواتي يدعن الرجل يكسب دائماً؟

تنهد، وهو يمسح الجزء الأقرع من قمة رأسه، هو في الثانية والثلاثين ولكن شعره الأسود يتساقط بسرعة، والواقع أنه حساس تجاه هذه المسألة، كان يضع دوماً نظارة ملونة، كانت هي وشاربه المتدلي يعطيانه جواً شريراً، ولم يعرف إلا قلة من الناس أنه يعوض بذلك عن خسارته لشعره..

ردت على سؤاله:

ـ لأنني بحاجة إلى التمرين.

استدارت الرؤوس وهما يسيران في الرواق المحاط بصفين من النباتات.. كان الرجال في نادي «لانكستر» يحدقون دائماً إلى لويلا التي تجذب نظراتهم بقدها الرشيق وبوجهها البيضاوي الجميل المحاط بالشعر الأسود الحالك. ابتسمت لشخص لوّح لها ولكنها ابتسامة لا تفصح عن شيء. أطلق ليو على ابتسامتها نعت ابتسامة «الموناليزا» السريعة الزوال، الكامن فيها غموض يستحيل على أحد معرفته.

دعاها ليو وكل منهما يتوجه إلى الحمام المخصص له:

ـ أراك في المطعم فيما بعد.

هزت لويلا رأسها موافقة.

أحبت نادي «لانكستر» مع أن الاشتراك فيه غير رخيص أبداً ولكن إدارته عرضت أسعاراً خاصة للعاملين في الصحيفة التي تعمل فيها الآن. وكان فيه من التسهيلات ما يجعل النوادي الأخرى تبدو من الدرجة الثانية.

كانت وهي تغسل نفسها بالصابون في الحمام المربع الصغير تفكر في ايليون. وهذا ليس أمراً غريباً.. لم يمر يوم منذ أربعة أشهر لم تفكر فيه. كانت الذكرى أحياناً تجعل عينيها حالمتين.. وأحياناً أخرى تدفع الدموع إلى عينيها.. في بعض الأحيان، كما الآن كانت الذكريات تلوي قوس شفتيها بابتسامة سعادة صافية. كانت تفكر فيها، في تلك الأمسية التي وقعت فيها في النهر، وكيف تعانقا وسط المياه المندفعة، وجهها المبلل

www.liilas.com

على وجهه ويداه مدفونتان في خصلات شعرها المتشابكة.

أحست بالألم المألوف القديم يسري في أعماقها فأغمضت عينيها بشدة ثم رفعت وجهها نحو رشاش الماء. كان حلمها المفضل أن يأتي ايليون يوماً ماداً يديه ليضمها.

لكن هذا لم يحدث.. خرجت من تحت الدوش يتقطر من جسمها الماء. كان شعرها الطويل الأسود يلتصق بصدغيها الرائعين وبخديها المتوهجتين.

التفتت المرأتان اللتان كانتا تثرثران أمام المغسلة لترمقا لويلا بنظرة هي مزيج من الحسد والإعجاب.. كان جسدها نحيلاً كجسد راقصة باليه، وكانت لويلا ستيرلنغ تكاد تصل حد الكمال الجسدي أكثر مما كانت يوماً.. لا شك أن السنوات ستبرز جمالها أكثر فأكثر، ولكنها لن تزيد شيئاً على المنّة التي أنعمها الله عليها.

انتظرت المرأتان قليلاً قبل أن تنتحنح إحداهما بخفة وتقول:

ـ قرأت مقالتك في صحيفة «ليبرتي».

رفعت لويلا رأسها، فابتسمت المرأة ابتسامة حميمة:

ـ أنت لويلا ستيرلنغ، أليس كذلك؟ قرأت مقالتك في «الليبرتي»، المقالة التي تدور عن المخدرات.. وكانت رائعة جداً.

هزت لويلا رأسها: «شكراً».

وعادت تجفف شعرها.. ولكن المرأة لم تكن قد أنهت كلامها.

ـ يبدو أنك تفهمين «كل شيء» وكأنك كنت مدمنة يوماً.

تدخلت صديقتها الأكثر ذكاء وشباباً بابتسامة ونظرت إلى جسد لويلا الصحيح الذي يزيده بروزاً ثيابها العاجية اللون.

ـ هذا أمر سخيف.

قالت الأولى: «أصاب المقال فيّ وتراً حساساً».

كانتا تمكنان مضربين، لكن لويلا أحست بأنهما ليستا هنا للرياضة.. ابتسمت، تنظر إلى مجففات الشعر القابعة على الجدار

المقابل بشوق.. عليها وعلى ليو العودة إلى المكتب في الساعة الثانية..

بدت المرأة الأكبر سناً فجأة على وشك البكاء.

ـ إنها ابنتي.. أترين، أعرف أنها تستخدم المخدرات ولكن عندما أحاول مواجهتها، تكذب وتكذب..

تمتم ليو متذمراً وهي تدخل إلى المطعم بعد ربع ساعة: «ما الذي أخرك؟ تصفيفة شعر جديدة؟»

ـ أيبدو عليّ هذا؟

كان شعرها نصف جاف لأنها لم تصل إلى أي مجفف للشعر.

أضافت: علقت في حديث مع امرأتين في غرفة الملابس، ولم أستطع الخلاص.

تنهد ليو وهما يتحركان نحو المقصف.

ـ يا للنساء!

لكن لويلا كانت تفكر في المرأة المسكينة.. لقد قدمت إليها أفضل النصائح، ومررت لها عناوين مؤسسات قد تساعدها، لكن الدلائل كانت غير مؤكدة. ليت لكل فتاة مدمنة رجل كايليون أوكلاند ينتشلها من وسط الدوامة..

ـ هاي.. أيتها الحالمة.. أتريدين مرطباً؟

ـ سآخذ عصير برتقال.

راقبها ليو، وهي تختار سلطة خضراء فيما كان طبقه يمتلىء بالأطعمة الفرنسية المقلية.

ـ هناك حدود لقدرة الإنسان على التحمل، ستيرلنغ! أليس لديك عيوب أبداً؟

ابتسمت: «لا أرى أن هناك فائدة في إرهاق نفسك بلعبة كرة المضرب مدة ساعة، ثم تملأ معدتك بالكربوهيدرات، أي النشويات والسكريات.. أنظر إلى كرشك».

تمتم: «حسناً، حسناً، أعطيني بعض السلطة».

www.liilas.com

لم تتركه يدفع الحساب مع أنه حاول جاهداً، كانت علاقتها مع ليو بلات الذي طلق زوجته منذ ثلاث سنوات غير محددة.. والواقع أنها هكذا أرادتها.. ليو وسيم، بهي الطلعة وصحافي ممتاز.. وبما أنه كان يصطحبها إلى العشاء أو السينما بانتظام ويلاعبها الاسكواش مرتين في الأسبوع، فقد أصبح مؤهلاً ليكون صديقها.. كما أن وجوده يمنع الرجال الآخرين في المكتب من إزعاجها.

لكنها أوضحت له أن صداقتهما لا تشمل شيئاً آخر..

مع أن ليو أصرَّ دائماً على مناداتها باسم عائلتها، وكأنها مناصرة عنيدة لقضايا النساء، إلا أنه ذو قلب رقيق، وهو يضمر تعلقاً حقيقياً بها.. عرفت أنه سرعان ما سيحاول الوصول إلى ما هو أعمق معها.. وعندئذ ستصده بتصميم.. ولا شك أنه سيتخلى عن علاقتهما إنما لن يكون ذلك بدون أن يشعر بجرح في كرامته، وستضطر إلى التفتيش عن رفيق آخر ليشاركها الاسكواش.

بعد ايليون لن يعني لها أي رجل شيئاً أبداً، لن تجد من يصل في مقاييسه إليه، لن يحل محله في قلبها أحد. تشعر في قرارة نفسها بأنها له حتى وإن خسرته إلى الأبد..

سأل: «ماذا لديك في مفكرة المواعيد؟»

ـ بعد الظهر؟ يجب أن أقدم المقالة إلى ستافور قبل الرابعة.

قال ساخراً: «ما أروع الإصغاء إلى موسيقى البوب ثم تقاضي راتباً على هذا. إنه ليس ما أسميه صحافة، لست في السيتي نيوز الآن ستيرلنغ».

ـ إنها موسيقى الجاز المعاصرة، وليست «البوب» وهناك فيها نظراً لما كانت عليه في السنوات الثلاث المنصرمة أكثر من مجرد الاستماع!

ضحك: «لم تكوني قد ولدت منذ ثلاث سنوات يا مدللة رئيس التحرير! لا تقولي إن هذه الموسيقى المعاصرة، والكتابة عنها، ليست أكثر المقالات جنياً للأرباح، هذا عدا دليل الطعام الجيد».

وافقته لويلا الرأي «للمقال حسناته، وتعويضاته».

كانت «لندن هيرالد» صحيفة محافظة شهيرة.. لم يستيقظ بعض محرريها من صدمة ظهور صورهم في الصفحات الأولى.. هذا عدا وجود صحفية جذابة تدعى لويلا ستيرلنغ، كانت سابقاً في «السيتي نيوز» عينت لتغطية كل ما هو حديث في مطاردة الشباب المعاصر. إن معظم المحررين كانوا يقدرون حكمة رئيس التحرير في ميله إلى سوق الشباب. وكان ستافور بيترلي يقول دائماً: إن أراد قراء الهيرالد أن يقرؤوها وهم في الأربعين أو الخمسين أو الستين فعليك أن تعودهم عليها وهم في العشرينات والثلاثينات.

كانت مقالة الهيرويين التي نشرت في مجلة ليبرتي النسائية هي ما جعلت بيترلي يقرر ضم لويلا إلى الهيرالد.

لقد أعادت كتابة القصة في الأسبوع الأول على مغادرتها مزرعة ميتكالف. حملت القصة قناعة مذهلة، استقطب لصالحها اهتمام الكثيرين. كان الألم الذي مرت به في الأيام الأولى شيئاً لا يمكنها كشفه لأي إنسان. كان كامناً في صلب المقال، لكنها وحدها عرفت أنه موجود هناك. لم تقرأ المقالة ثانية وما أرادت استرجاع ذلك الألم ثانية خاصة بعد الهدوء الذي تمكنت من إحاطة نفسها به.

كان الهدوء وابتسامة الموناليزا نتاج جهد جبار قامت.. كانت مضطرة إلى جذب شتات حياتها من أطرافها الممزقة المهترئة، وأن تخلق لذاتها وجوداً جديداً لا يتمحور حول ايليون أوكلاند.. لقد بذلت جهداً عنيفاً قاسياً، مريراً، كان أشد إيلاماً من التخلص من الإدمان.

الشيء الوحيد الذي لم تتعلمه، هو التوقف عن التفكير في ايليون.. لن تتمكن من هذا أبداً، حتى ولو راهنت بروحها سيبقى ايليون جزءاً منها. وهذا واقع لم تزعج نفسها قط في تحديه.. لقد أغنى لها حياتها البائسة، وأنقذها من دمار كامل.. وإن سبَّب تركه لها ألماً فعليها تقبل ذلك.

لا اتهامات، لا لوم! لقد فعل ما ظنه صائباً.

www.liilas.com

خرجت لويلا من أفكارها لترد على ليو:

ـ على أي حال، عليّ بدءاً من الغد أن أغطي مهرجان المسرح.. ستة مسرحيات عصرية، لا نص لمسرحيتين منهما.. فإن كنت ترى هذا هيناً فسأتبادل معك الأدوار مسرورة.

ارتجف ليو:

ـ لا.. شكراً.. هذا أبعد بكثير من نداء الواجب.. أوافقك الرأي.

وضع يده على يدها، وأبقاها هناك أكثر من اللازم بقليل:

ـ أردت أن أقول لك إنّ لدي تذكرتين لأوبرا «عايده» هذه الليلة.. ستغني فيها «ايزوبيلا دورانتي».

قالت شاكرة: لا أستطيع ليو. سأذهب لرؤية أمي وهاريس بعد العمل مباشرة.

اكفهر وجهه: «ألا يمكنك تأجيل زيارتهما؟»

ـ لقد وعدتهما.. إنه عيد ميلادي.

نظر إليها لحظة، ثم رمى منديل الطعام: «اللعنة!»

ـ آسفة ليو.

ـ لماذا لم تخبريني؟ تبقين كل شيء سراً لويلا.. وكأنك كائن غامض فوق مستوى البشر. أعني، ربما كنت راغباً في شراء هدية لك، وفي تحويل اليوم إلى يوم مميز لك..

قالت تهدىء روعه: «لا أريد هدية.. واليوم هو مميز. أخيراً خرجت من مراهقتي».

قال بمرارة: «إنه مميز لك.. لكن الواضح أنك لا تريدين مشاركته معي.. ربما ما كنت أخبرتني لولا دعوتي إياك إلى الأوبرا».

ردت بحزم: «لم أرغب في ضجة».

علمت أنه سيشتري لها هدية غالية الثمن وهذا ما يزيد الأمور تعقيداً.

ـ أرجوك، لا تشتري لي شيئاً.. أنا لا أريد أية هدية.

ـ تقصدين أنك لا تريدين أية التزامات.. ولا تريدين أن تلتزمي..

هل تنوين العيش حياتك على هذا المنوال؟ «فتاة الثلج» تشربين عصير البرتقال وتقضمين الخسّ؟

ابتسمت: «لا تفسد عليّ يوم مولدي».

ـ كم أتمنى لو أعرف ما حدث لك في ماضيك الغامض.. أشعر بأن رجلاً آلمك كثيراً.. وكم أرغب في تحطيم رأسه كائناً من يكون ذلك القذر.

تذكرت أن ايليون أطول من ليو قدماً على الأقل، وهناك أمور كثيرة لا يعرفها ليو عنها.. منها مسألة إدمانها. قالت تهدىء روعه:

ـ لم يؤلمني أحد.. آسفة على الأوبرا.. لماذا لا تأخذ إيثل فرايسون.. إنها تحب الأوبرا.

ـ ألا يجعلك هذا تغارين؟

ـ بالتأكيد لا.

هز رأسه: «بالتأكيد لا. حسناً سأدعو إيثل.. عيد ميلاد سعيد ستيرلنغ».

ـ شكراً لك.

تابعت لويلا طعامها بهدوء، رغم صمت ليو المجروح. كانت تتطلع شوقاً إلى هذه الليلة. منذ عودتها إلى لندن، تحسنت العلاقة بينها وبين أمها وهاريس بفعل ساحر. بدا التغيير في شخصيتها لهما عجائبياً، ولكنهما تقبلاه بفرح.. لم يعرفا بأمر إدمانها أو بأمر ايليون أوكلاند.

كان ايليون سراً تكتمه في نفسها فلم تخبر أحداً عنه حتى هيستر بارسلي.. هيستر التي بكت يوم أخبرتها لويلا أنها تخلصت من الإدمان. اعتقد بعض الذين عرفوا بأمر إدمانها أنها أقامت مع أصدقائها في الريف لتتظف جسدها من السموم..

سألها ليو، وكأنه يقدم غصن زيتون: «هل ستقومين بركوب الخيل نهاية هذا الأسبوع؟»

ردّت بحماس: «عظيم».

www.liilas.com

لقد ترك ايليون في نفسها حب الخيل. وكانت تعمد إلى امتطاء الخيل كلما سنحت لها الفرصة، فالفروسية تذكرها بميتكالف.

قال ليو: «أحب أن أراك فوق صهوة جواد.. تبدين رائعة فوق السرج.. وكأنك ولدت على ظهر فرس.. أنت رشيقة وجميلة وخلابة لويلا.. أفكر أحياناً..»

رفعت معصمها النحيل لتريه الساعة: «أنظر إلى الوقت!»

أحست بالأسف على ليو.. لكنها لا تريد أن تشجعه أبداً.. ليت مشاعره لا تتجاوز حد الصداقة.

قالت مبتسمة:

ـ من الأفضل أن ننطلق بعد دقائق.. أنه طعامك بسرعة.

كانت الأمسية في «بورلي» لطيفة. منذ تزوجت أمها أصبحت لويلا غريبة هنا. لم تحسد أمها قط على السعادة التي وجدتها مع هاريس وولديها، ولكنها أحست يومذاك بألا شيء مشترك بينهما.

أما الآن فشعورها مختلف.. بدأت تحترم هاريس وتعلمت أن تحب شقيقتها الجديدة وشقيقها.. ووجدت أن بينها وبين أمها أشياء مشتركة عديدة، أكثر مما كانت تتصور.

غادرت منزل أمها في الحادية عشرة، وقادت سيارتها عائدة إلى شمالي لندن، إلى شقتها الجديدة في ضاحية «بيرنت». كانت سعيدة بابتعادها عن غرفتها القديمة، التي أصبح جوها موحشاً منذ عودتها من ميتكالف.. كانت الشقة نظيفة، لطيفة فيها حديقة تمكنت لويلا من الاستمتاع فيها بأشعة الشمس في نهايات الأسبوع الدافئة. لكنها على أي حال مختلفة كل الاختلاف عن فخامة ميتكالف وهدوئها. كانت تفكر في غابة «داركراسنغ وود» وهي تقفل سيارتها فتراءت لها في الربيع بهية بعدما كانت مأساوية في الشتاء.. تعرف أنها الآن في أوج تألقها وبهائها.

تصورت ايليون ممتطياً ساتين في الغابة، حيث يميل جسده اللين بانسجام مع حركات الجواد.. ولم تكتف بهذه الصورة بل أن تسمع

حفيف أوراق الشجر الميتة تحت حوافره، وتتنسم رائحة الأرض الندية.. أيفكر يا ترى فيها؟ أيتساءل كيف حالها؟ هل عرف يوماً أو تصوّر أنها لم تتوقف قط عن حبه، والتفكير فيه؟

فتحت باب المنزل الخارجي، وتوقفت لتلتقط البريد. وجدت ما يزيد عن عشر بطاقات معايدة، معظمها من أصدقاء الدراسة.. ولكن إحداها كانت مختلفة

فتحتها بسرعة.. لم يكن عليها توقيع بل فيها ثلاثة أسطر فقط مكتوبة بخط أسود مميز على البطاقة البيضاء:

«عيد ميلاد سعيد لويلا، إذن.. لقد كبرت.. وتوقفت عن الوقوع في النهر.. أم هذا ما يبدو لي؟... اعتني بنفسك جيداً».

في الورقة المطوية مجموعة صغيرة من الريش الناعم، مربوطة بشكل جميل، لسعت الصنارة الحادة كالإبرة أصبعها وهي تخرجها.. إنها صنارة سلمون.

جلست على كرسي في الردهة، متأرجحة ما بين الضحك والنحيب.. عادت الذكريات متدفقة، وتذكرت ذلك اليوم في النهر..

تلاشى الهدوء الذي أثار أعصاب ليونارد بلات فجأة.. ماذا سيقول لو شاهد «فتاة الثلج» الآن باكية بعجز أمام صنارة صيد؟

مسحت رموشها بظاهر يدها، ونظرت إلى الصنارة الملقاة فوق الكلمات التي أصبحت الآن متراقصة.. إن هذه الأسطر الموجزة تقول بكل بساطة أموراً كثيرة لها. تقول «لقد اشتقت إليك.. وأفكر فيك.. ولم أنس».

إنها الإشارة الأولى التي تتلقاها منه منذ أربعة أشهر.. وقد أثرت فيها بشكل غير متوقع.. عاودها الألم الشديد الذي حاربته بقوة، يملأ قلبها بشوق مؤلم إلى ايليون وهو شوق بحاجة إلى وقت طويل طويل، حتى يخبو مجدداً في داخلها.

أعدت فنجان شاي، وذهبت مباشرة إلى منضدة الكتابة.. الوقت

www.liilas.com

متأخر، لكن لا يمكن لرسالتها أن تنتظر، إنما ما كادت تصل إلى أسفل الصفحة حتى كورتها في يدها، ورمتها ببؤس في سلة المهملات.. كانت كلماتها عاطفية، شفافة، ملؤها الشوق الفاضح بشكل مؤلم. وهذا ما سيبعده عن أي اتصال آخر.. لقد كان واضحاً بشكل وحشي، بأنه لا يريد أي عرض عاطفي منها. «انسي أمري.. بالله عليك نحن بحاجة إلى الابتعاد عن بعضنا بعضاً.. اجمعي شتات نفسك.. أخرجي وانطلقي».

حسناً.. لقد بدأت تنطلق. إن ألقت نظرة إلى الوراء تبين لها أن حياتها كلها تبدلت.. لقد فعلت ما أراد أن تفعل.. وسينظر إلى عملها بنوع من الرضى.. وما إرساله هذه الرسالة إلا إثبات على ذلك.

أرادت أن تكتب له عدة مرات.. أن تحاول شكره، أن تحاول إظهار عمق مشاعر العرفان بالجميل..

لكن، حتى هذا كان محرماً عليها.

لمست البطاقة بأطراف أصابعها.. ربما لا يريد أي نوع من الرد.. لكن هذه الصنارة الصغيرة كانت رمزاً بارزاً لهما.. ماذا كان هذا الرمز؟ أهي رسالة يقصد بها أنه لم يستطع إبعادها عن تفكيره؟ أم أنها تذكير لها لتبقى حرة غير مرتبطة، تسبح طليقة في النهر؟

كانت إشارة معقدة مثيرة للحيرة من رجل شديد الإيجابية. ربما تعمد أن يكون معقداً.. ربما كانت الرسالة يريد أن يقول فيها «لا تنسيني».

وضعت قلمها من يدها وراحت تنظر بعينين سوداوين ساهمتين. تتذكر ذلك اليوم الخريفي الممطر، عندما دخل إلى حياتها، تتذكر أوراق الشجر التي كانت تتطاير في موقف السيارات المهجور، تتذكر الرجل الطويل ذا العينين الرماديتين وهو يفتح لها باب المرسيدس..

لم يكن لديها يومذاك فكرة عما يخبئه القدر لها.. كيف توقعت أن تقودها المحنة إلى الحب.. وفي النهاية إلى وحدة أشد قوة مما سبق أن شهدت من وحدة في حياتها.

آه! أجل.. صحيح أن لها الآن أصدقاء كثُر. لقد علمها ابليون أن

تحرر نفسها من الغضب والسخط اللذين جعلا من سنوات مراهقتها سنوات اضطراب والواقع أنه ما إن ظهرت شخصيتها الحقيقية حتى انجذب إليها الناس لأول مرة في حياتها. وأصبح لها المزيد من الأصدقاء، المزيد من المعجبين الرجال.

مع ذلك عرفت في قرارة نفسها أنها لن تتمكن من منح نفسها لأي رجل. هناك فقط صديق واحد، حبيب واحد، تريده فعلاً.. أمن الممكن أن تجد السعادة الحق بدونه؟

في النهاية لم تكتب أي رد، لا في تلك الساعة ولا في الأسابيع التالية.. لقد حكمت أن ايليون لا يريد رداً.. لكن كان من القسوة الشديدة أن تلازم الصمت وأرادت بيأس أن تسمع شيئاً منه مرة أخرى.. الفرصة الوحيدة للحصول على هذا هو الرد عليه ببرود قدر المستطاع.

مع تقدم موسم الصيف، ثقل حمل العمل.. لم يتطلب عملها أكثر من بضع مقالات أسبوعياً.. مع ذلك فقد كان من غير العادي أن يتطلب العمل في هذه المقالات هذا الضغط الذي يفوق الضغط الذي كانت تعاني منه أيام «السيتي نيوز» وكان ستافور بيترلي يتوقع الكثير منها.

صحيح أنها استمتعت بالضغط وبالجهد الذي تبذله من أجل كتابة مقالة صعبة.. لكن معرفتها بأن لدى الهيرالد ما يفوق المليوني قارىء كان يرهبها.

انتهى شهر أيار وحل شهر حزيران.. وأصبحت أيام الأربعاء والخميس أثقل وطأة من العادة عليها، خاصة عندما قدم لها ستافورد بيترلي مهمة مميزة ليوم الجمعة، حيث فرصتها الحقيقية بانتظارها.. أصبح لملحق يوم الجمعة الذي كان غنياً بأخبار وإعلانات مسارح «الوست اند» والحفلات الموسيقية، قراءه أكثر من أي ملحق آخر.. وهذا ما زاد الأعباء على كاهلها.

حمل الأسبوع الثاني من شهر حزيران طقساً حاراً.. وكان يوم الخميس واعداً بحرارة مرتفعة.. كان المكتب هادئاً تقريباً في الصباح

www.liilas.com

الباكر، ولأنها غير مرتبطة بالمواعيد المحددة لمحرري الأخبار، تمكنت من استغلال الهدوء النسبي. لكن ما ان انتصف الصباح، حتى بدأت عجلة العمل بالانطلاق بسرعة استعداداً لما كان ليو يدعوه جنون أوائل المساء.

أدارت عينيها في المكتب الذي أخذ يمتلىء بسرعة.. كانت تنتظر بفارغ الصبر ساعة الاسكواش.. تذكرت مبتسمة ردة فعل أمها عندما وصلت لتقابل لويلا في العمل، إذ قالت: بطريقة ما كنت أظن أن لك مكاناً خاصاً بك!

كان المكتب يمتد من جهة إلى الجهة الأخرى في المبنى حيث صف طويل من النوافذ.. ملأ ثلاثون مكتباً أو يزيد المساحة الرئيسية وكان معظمها مشغولاً. الجو يضج بأصوات المتكلمين وأصوات الطابعات، والكمبيوترات، وآلات التلكس وهمهمة رنين أجراس الهاتف.. أجابتها مبتسمة لها: ليس لأحد هنا مكان خاص به أمي!

جاء ليو ليأخذها في الثانية عشرة، وسارا معاً بضع مئات من الأمتار في شارع «فليت» إلى حيث نادى لانكستر الرياضي.. وكان اللعب حامياً، خاصة في النصف ساعة الأولى.. قال ليو برضى وهو يجفف جبينه برباط ساعده:

ـ لقد كسبت.. أنت لا تركزين ستيرلنغ.

ـ آسفة.

انحنت تلمس أطراف أصابع قدميها، تمدد ساقيها المديدتين في التنورة البيضاء، بدت سمراء، جميلة مثالاً للأنوثة والصحة. كان ليو يراقبها فرأت في عينيه مشاعره.. في الأسابيع الأخيرة قويت مشاعره تجاهها بشكل ظاهر.. ولكنها لا تريد علاقة حميمة مع ليو..

قالت بصوت أجش: «هيا، ابدأ الجولة أنت».

أرسل ضربة البداية إلى الزاوية، وكان على لويلا أن تتعثر لتردها.. كان من غير المجدي أن تحاول هزيمة ليو بمحاكاة ضرباته القوية، وعليها أن تعتمد على ضرباتها الحادة وعلى رشاقتها.

آن الوقت إذن لتغير خططها.. ردت ضربته إلى الزاوية، فسقطت الكرة عمودياً تقريباً.. قفز ليو إلى الأمام بشيء من الجهد ولكنه أرسل الضربة بطريقة خاطئة مكنت لويلا من إرسالها إلى خارج منالة.

تمتم وهو يسير برشاقة على الأرض الخشبية المصقولة:

ـ اللعنة.. كان عليَّ أن أقفل فمي.

قالت لويلا: الجو حار جداً.. لقد حل الصيف أخيراً.

تصبّب العرق من جبينها وساعديها، لكنها كانت تشعر بالطاقة والصحة تتدفقان في شرايينها.. سارع الآن للرد على ضربتها. لعبا مدة نصف دقيقة بلا كلام وكان صوت صدى الكرة في جولتهما هو الوحيد الذي يكسر الصمت. أخيراً شهق بدون أن يزعج نفسه بالرد على آخر ضرباتها:

ـ آه.. بالله عليك.. يوماً بعد يوم تزداد براعتك فأراني غير قادر على مشاركتك اللعب.

أمسك جبينه لاهثاً، ثم توجه نحو المنشفة:

ـ أنت على حق. يجب أن أتخلى عن الدخان، لأن وزني أكثر من وزنك بثلاثين كيلو غراماً وعمري أكثر من عمرك بعشر سنوات.

ابتسمت له وهي تدير مضربها مفكرة، ثم لحقت نظرته التي ارتفعت إلى فوق.

في الرواق المهجور عادة، فوقهما.. كان رجل طويل واقف.. يتكىء إلى السياج.

إنه ايليون.

***

www.liilas.com

فراشة المحبة

٩ ـ لماذا تأخرت؟

انقلب قلب لويلا رأساً على عقب. ها هو ايليون أوكلاند الذي لم يغب عن تفكيرها لحظة منذ خمسة أشهر، واقف أمام ناظريها للمرة الأولى. لم تستطع غير التحديق إليه، إلى وميض تينك العينين العظيمتين الخطيرتين.. ابتسامته بطيئة، ممازحة تقريباً، لكنه لم يُظهر دليلاً على الاهتمام.

سألها ليو متوتراً: «أتعرفينه؟»

ـ صديق.

جف حلقها وخارت ركبتاها، فأرادت فجأة الجلوس.. لكنها قالت بهدوء لإيليون:

ـ مرحباً.. ما أروع أن أراك.

ـ هذا شعوري أيضاً. من الرابح؟

بدا نحيلاً قوياً وكأنه فقد جزءاً من وزنه.. ولكن لا أثر لانخفاض الحيوية في هذا الوجه الرجولي العسلي اللون.. ردت لويلا: «تساوينا».

كان قلبها يخفق بشدة بين ضلوعها، وبدت غير قادرة على إشاحة عينيها عن عينيه.

لوح ليو بلات بمضربه، كان متورد الوجه قليلاً، وقال متجهماً:

ـ هل ستتابعين اللعب ستيرلنغ؟ لدينا الملعب مدة عشر دقائق أخرى.

قال ايليون بصوت أجش عذب: «لن أفوّت اللعبة أبداً».

عادت لويلا انتباهها بجهد فائق إلى اللعب.. ولكن فجأة لم يعد للعبة الاسكواش علاقة بحياتها. لقد أصبح كل شيء أمام وجود الرجل الأسمر في الرواق فوقها، بلا أهمية.

أرسلت الكرة عن غير وعي فردها ليو بضربة قاتلة وهذا ما جعلها تتعثر.. كانت تشعر بعيني ايليون عليها، فلعنت اضطرابها في نفسها، وأرغى عقلها وأزبد بالتساؤلات.. ماذا يفعل هنا؟ هل جاء ليراها؟ هذا واضح.. ولكن لماذا اختار هذا الوقت الذي تبدو فيه عرقة، مشعثة الشعر، متعثرة في ملعب الاسكواش..

كسبت الجولة بالحظ فقط.. والواضح أن ليو منزعج.. إن الأعمى قادر على ملاحظة ردة فعلها التي بدت عليها عندما رأت ايليون.

أنهى جسدها نيابة عنها اللعب، بقيادة آلية. كانت أحاسيسها منصبة على وجود ايليون فوقها.. وبعيداً عن التركيز على ضربات ليو المتزايدة في عنفها، لم تستطع إلا التفكير في ما يدور في رأسه وهو يراقبها.

أخيراً قال ليو ساخطاً: «كسبت الجولة».

لكن لويلا لم تدرك أنها ربحت، بل نظرت إلى الأعلى نحو ايليون، الذي أبدى استحسانه بصمت. وكان اللاعبان التاليان يتجولان ارتقاباً أمام مدخل الملعب.

تحداها ليو سائلاً بصوت منخفض، وهما يخرجان من الباب ليرتقيا الدرج وصولاً إلى الرواق: «من هذا الرجل؟»

ردت بخفة: «صديق قديم.. سأعرفك إليه».

قاطعها غير مبتسم: «حبيب سابق؟ الحبيب السابق؟»

ـ إنه شخص كان في غاية اللطف معي ليو.

لم يصدقها ولكن لم يكن لديه وقت للتعليق. التقيا ايليون في أعلى الدرج، كان يرتدي ثياباً رسمية؛ بذلة سوداء مؤلفة من ثلاثة قطع، بدا فيها رائعاً بحيث سيطر وجوده على كل ما حوله.

قال بلطف وهو يصافحها قبل أن يلثمها على جبهتها المبللة.

ـ لعبك جيد.

قالت: ليو، هذا ايليون أوكلاند، وهذا ليونيل بلات.

كان يمسك يدها، وكانت متوردة مقطوعة الأنفاس، إنما ليس من

www.liilas.com

اللعب. لم يكن ايليون مهتماً ولو بطريقة بعيدة بليو.

طافت نظرته على جسدها بإعجاب حتى انتهى أخيراً إلى عينيها. قال بلهجة حميمة عذبة اقشعرت لها بشرتها:

ـ ازداد وزنك.

تصلب ليو إلى جانبها، وحاولت أن ترد بخفة:

ـ وأنت خسرت شيئاً من وزنك. ما الذي حملك إلى لندن؟

قال بلطف: «هذا.. وذاك».

كانت عيناه مسيطرتين، واضحتين عميقتين كبركة صخرية. عينان قد يغوص فيهما المرء ويضيع.. انتزعت عينيها منه بجهد إرادي.. فابتسم، وكأنه يقرأ أفكارها المضطربة. قال وهو يترك يدها:

ـ أنتما بحاجة إلى حمام. أراك في المطعم لاحقاً.

قال ليو، وهو يمسك ذراع لويلا بقبضة شديدة تنم عن الألم:

ـ هذا صحيح..

ثم سأل حتى قبل أن يبتعدا عن مجال السمع:

ـ من هو بحق الله؟

الواضح أنه غاضب منها، بسبب هزيمته في اللعب، وبسبب ايليون.

ـ أنت تنظرين إليه وكأنه يملك روحك!

إنه تكهن صائب، شرحت بصبر:

ـ ايليون صديق قديم لوالدي.. وكان لطيفاً معي عندما احتجت إلى مساعدة.

ـ صحيح؟ وماذا يفعل؟

ابتسمت: «يؤصّل الخيول».

ـ لا يبدو من هذا النوع.. ماذا يفعل هنا؟

ـ لا أدري.. أنت تؤلم ذراعي ليو.

حدقت عيناه إلى عينيها، وقال متهماً:

ـ إنه هو.. أليس كذلك؟ هو الذي آلمك، هو الذي لا تستطيعين

نسيانه..

ـ أرجوك ليو!

لماذا على ليو أن يكون هنا؟ فكل ما تريده الآن هو الانفراد بايليون، والحقيقة القاسية أن لا مكان لليو هنا الآن.

أضافت: «ليس لدينا وقت طويل».

ـ أنت لا تريدين إضاعة دقيقة بعيداً عن صديقك ايليون!

ردت بهدوء وهي تحرر ذراعها من يده:

ـ سأذهب لأستحم.

توجهت إلى حمام النساء، حيث بدأت بالاستحمام. لا حاجة بها اليوم إلى الخيال، فايليون موجود هنا، ينتظرها. يستحيل عليها أن تصدق ذلك! مهما كانت الأسباب، الواقع نفسه لا يصدق.. لقد جاء بحثاً عنها.. إنه هنا.

أغمضت عينيها تحت الماء، تحس أن كل إنش من جسدها يقشعر سروراً وألماً.. ها هو ذلك الألم يبدأ من جديد، وكأنه جرح لن تشفيه غير لمسة ايليون.. نهرت نفسها: سيطري على نفسك! بالله عليه لا تبعديه عنك، بإظهار قوة حبك له.

لكن، في قلبها إحساس غريب، أشبه بارتجاف جناحي فراشة وهو شعور لم يسبق أن شعرت بمثله منذ كانت في ميتكالف.

استحمت، جففت شعرها، وارتدت ملابسها في وقت قياسي. لكن عندما دخلت إلى غرفة الطعام وجدت ليو هناك، الواضح أنه لا ينوي تركها بمفردها مع ايليون ولو دقيقة واحدة.

نهض ايليون برشاقة عن الطاولة وابتسم لهما معاً:

ـ ما أسرعكما! هل لي أن أشتري لكما شراباً.

قال ليو بحدة: «لن تستطيع.. هذا الحق محصور بالأعضاء فقط».

ـ لكنني عضو.. لقد أصبحت عضواً لتوي.

ـ وكيف تمكنت من هذا بهذه السرعة؟

www.liilas.com

ابتسم ايليون: «لقد غششت.. رئيس النادي صديق قديم لي».

سأل ليو وهو لا يكاد يخفي عدم تصديقه:

ـ السير هنري سكولدر؟

قال ايليون بطريقة عفوية: «لديه فرسان من أفراسه في اسطبلاتي الآن.. ولقد تم تزاوجهما مع أفضل فحل لدي، ساتين».

استدعى الساقي بإشارة خفيفة من حاجبه. أضاف: «لقد تصرفت بحرية فطلبت الغداء الذي سيقدم في الغرفة المجاورة بعد عشر دقائق.. إنها أكثر عزلة من هنا.. والآن، ماذا تشربان؟»

قالت لويلا بسرعة: «كوب عصير برتقال طازج».

كان فم ليو مشدوداً تحت شاربه المتدلي. تمنت لويلا على الله أن يتوقف ليو عن إظهار هذه الكآبة.. وكأنما بلغته الرسالة، فجلس في المقعد الذي أشار ايليون إليه، مقرراً أن يأخذ زجاجة مرطبات كعادته.. أيظن ايليون أن ليو حبيبها؟ تصعب معرفة ما يفكر فيه ذلك الوجه الوسيم.. تتمنى على الله ألا يعتقد أنها على علاقة حب مع ليو. ولكن الأفضل لها أن ليو هنا فوجوده سيمنعها من قول أو فعل ما هو غبي.

سألت ايليون:

ـ إذن.. ما الذي حملك إلى لندن.. عمل؟

ـ أجل.. جئت إلى مطار هيثرو لمقابلة مسافر رفيع الشأن هذا الصباح.. ثلاث أفراس استيلاد من هونغ كونغ. أحب أن أكون متواجداً في مثل هذه المناسبات، لأتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام. إنها الآن في طريقها إلى ميتكالف.

سألت لويلا برهبة:

ـ طوال الطريق من هونغ كونغ! إنها مسافة بعيدة لإرسال ثلاث أفراس لمجرد الاستيلاد!

هز ايليون رأسه: نعم مسافة بعيدة، ولكن مالكها مليونير صيني، مصمم على استيلادها من ساتين. إنه يؤسس ما يرجو أن يكون أفضل

سلالة أفراس في الشرق الأقصى.. ستبقى الأفراس الثلاث في ميتكالف مدة سنتين لتنجب كل منهما مهرين.

قال ليو بفظاظة: «هكذا! جياد للإنتاج؟»

ـ لو يسير كل شيء بالسهولة التي يسير عليها الإنتاج لهانت عليّ الأمور.

ـ وماذا يحدث إن لم يكن هناك نتيجة من وراء التزاوج؟

رد ايليون على السؤال العدائي بسهولة:

ـ هناك دائماً نتيجة.. لا أحتاج لأسألك عن عملك، لأنني أقرأ الرد يومياً في الهيرالد.

قالت لتغطي تورد وجهها:

ـ لا توقع أسماء الصحافيين دوماً على رأس مقالاتهم.

قال لها مبتسماً: «نادراً ما وجدت صعوبة في معرفة مقالك».

وصل الساقي مع المشروبات.. وبعد دقائق من حديث متفرق، ومع تزايد توتر ليو بمرور الدقائق، انتقلوا إلى غرفة الطعام الخاصة المجاورة. تاقت لويلا لتسأله عن ميتكالف وعن الريف وبهائه في الوقت الحالي، وعن المنزل الكبير إن كان قد اكتمل أثاثه. لكنها لم تستطع، فقد أحبط وجود ليو أي حديث قد يكشف كم كانت وايليون مقربين أو عن ظروف بقائهما معاً. آخر ما قد يريده ايليون هو إظهار دليل على عدم الترحيب به منها.

وجبة الطعام، التي كانت بمعظمها باردة، والتي من الواضح أنها أعدت خصيصاً على شرفهم، كانت بعيدة كل البعد عن الطريقة المعتادة في النادي، من الخدمة الذاتية.. تحدث ايليون بسهولة عن الجياد.. وكان سحره قد عوّض عن ارتباكها وعن حرد ليو. راقبته لويلا بعينين ملؤهما الحب.

لا شك أن وزنه قد انخفض، إنها واثقة من هذا. فعظام خديه، وفكه، أكثر بروزاً مما تتذكر.. أرادت أن تسأله عن هذا، لكنها لم تستطع..

www.liilas.com

فأخذت تراقبه، وتفكر في وسامته الشديدة وفي الهالة التي تحيط به.

قال ايليون وهم يتناولون الحلوى اللذيذة:

- هناك سبب آخر لمجيئي إلى هنا.. السباق السنوي التقليدي في «تشيلتنهام» بعد ظهر الغد، «فارس البحر» هو المفضل التالي لدي.

سأله ليو: أهو أحد جيادك؟

- إنه الكستنائي الكبير.. أتذكرينه في ميتكالف لويلا؟

هزت رأسها ثم أضاف:

- آمنت أنه يعد بمستقبل باهر في حقل السباق. إن كنت تحب الرهان فأنصحك بالمراهنة عليه.

رد ليو بحدة: «لا أهوى المراهنات».

قال ايليون بلا مبالاة تكاد تصل حد التكبر:

- مؤسف جداً.

نظر إلى ساعته، ثم قال:

- حان وقت ذهابي.. عليّ أن أسرع.

أحست لويلا بألم جسدي يخترقها كالرمح.. هل سيبتعد مجدداً عن حياتها كما دخلها فجأة؟ كادت الدموع تنهمر على الرغم من تعابير وجهها الهادئة، وضعت يديها في حجرها لإخفاء ارتجافهما المفاجيء.. التقت عينا ايليون بعينيها، ولم يبتسم بل قال بهدوء:

- لدي مقصورة في «تشيلتنهام».. أترغبين في المجيء معي؟

قفز قلبها بألم للدعوة، وهذا ما جعلها غير قادرة على الكلام للحظة.. سيطرت بجهد كبير على نفسها وقالت ببرود:

- ليس لدي عمل.. أجل أحب أن أذهب معك.

قال بالعفوية ذاتها:

- جيد.. لم يسبق أن ذهبت إلى هناك من قبل، أليس كذلك؟

هزت رأسها الأسود: «لا».

- سأستمتع بالتجول بك في المكان لتريه.

التفت إلى ليو، ثم أكمل الحديث مع لويلا:

- آسف لأنني سأتركك هكذا. لكن يومي زاخر بالمقابلات المملة.. متى تكونين جاهزة في الغد؟

- في الثانية عشرة والنصف.

- سأصحبك إذن من مكتب الهيرالد، في الثانية عشرة والنصف.

هزت رأسها.. في الصمت القصير الذي سبق موافقتها على الذهاب معه، شاهدت شيئاً في عينيه، لم تره من قبل، شيء أشبه ما يكون بالرجاء.

رحل ايليون بهدوء وتهذيب.. راقبه ليو بوجه خال من أي تعبير، ثم استند إلى كرسيه.. قال فجأة وفي صوته أكثر من مرارة:

- أبدو من الدرجة الثانية بعد ايليون أوكلاند.

لم تعرف ما تقول.. فمدت له يدها.. إنه الآن في المركب الذي كانت هي فيه.

قال لها: «لا تأسفي عليّ.. على أي حال، لقد أعطيتني من الإشارات ما يكفي.. ألم تفعلي؟ لم تريدي شيئاً مني أكثر من الصداقة، وكنت غبياً، ومغروراً لأصدق».

قالت بهدوء:

- ليو.. ليس الأمر كما تظن.. ايليون لا يحبني.

هز كتفيه: «ولأنه لا يحبك قطع كل هذه المسافة بحثاً عنك.. لكن هذا غير هام على أي حال.. ما يشغل بالي هو وقوعك أنت في حبه. طالما أحببته وستبقين دائماً على حبه».

انتفضت لويلا، وسألت بتعاسة:

- أيظهر هذا عليّ؟

- نعم يظهر عليك ذلك رغم محاولاتك لإخفائه.. إنه رجل رائع لويلا، أفهم لماذا يصعب نسيانه.. وأتمنى لك الحظ.

- الحظ لماذا؟

www.liilas.com

ـ لأحلامك. لكل إنسان حلم في حياته لويلا.. وتحقيق الحلم هو الفرق بين حياة راضية وحياة ضائعة في شوق لا طائل منه.. إن حلمك يدعى ايليون أوكلاند.. هل نذهب الآن؟

ظلت صامتة طوال طريق العودة إلى المكتب. كان تفكيرها مشغولاً بأفكار غير سعيدة عن ايليون، اختلطت مع قلق بسيط آخر، هو متى سيكون لديها الوقت لتشتري فستاناً يناسب «تشيلتنهام».

في أثناء العودة إلى شارع فليت، لامست ذراع ليو بلطف وكانت مضطرة إلى رفع صوتها فوق صوت السيارات:

ـ أنا آسفة ليو.

نظر إلى السماء الزرقاء الظاهرة بين البنايات:

ـ لا تأسفي.. طالما عرفت أن رجلاً آخر هو الأول في قلبك.. ولكنني ظننت أنني مع الوقت، قد أحل محله. الآن عرفت بما لا يقبل الشك أنك لن تكوني سعيدة مع رجل آخر لويلا، أبداً.

***

تدفقت الجياد فوق الحاجز. ملأ سيل من الأجساد البراقة القوية العضلات الجو برعد حوافرها.

كانت لويلا تحبس أنفاسها في مزيج من الرهبة لروعة المنظر، والرعب لخطر ما يحدث. ما هي إلا لحظة حتى انطلقت الجياد.

سقط أحد الجياد ورأسه منخفض وسمعت شهقة الفارس بوضوح، وهو يهوي فوق العشب، ويتدحرج، محاولاً حماية رأسه من حوافر الخيول الفولاذية.

صاحت بلهفة وأصابعها تحفر ذراعه:

ـ ايليون!

قال غير مشفق: «إنه يبتعد عن الخطر فقط».

ترنح الفارس الذي ساعده رجلا إسعاف من فريق سانت جون. فيما سارع عدد من المساعدين لمساعدة الجواد المترنح.

ـ الأحمق.. كاد يقتل نفسه وجواده.. من حسن حظه أن سرعته كانت خفيفة.

حرك منظاره ليلاحق الجياد الأخرى.

تعلقت بذراعه القوية وكانت مخاوفها على الفارس قد تلاشت تقريباً، كان يوماً رائعاً، لا تتذكر متى كانت آخر مرة أحست فيها بالحياة تجري في عروقها هكذا.

قالت مقطوعة الأنفاس: «لم أظن السباق سريعاً إلى هذا الحد.. ومثيراً. إنه رائع..! أصغ إلى صيحات الجموع المحتشدة..»

ابتسم وهو يمرر لها المنظار المكبر:

ـ هذا هو الأمر كله.. إن هؤلاء الناس يصيحون من أجل مراهناتهم.. وهكذا ينتهي الأمر بجواد أن يصبح ثمنه عشرات الملايين من الجنيهات.

لاحقت السباق، الذي أخذ يتفرق بوصوله إلى منتصف الطريق.. كان منظراً جميلاً اندفعت فيه ثمانية من أفضل جياد أوروبا كالعاصفة فوق العشب المخملي، وتحت سماء انكلترا الزرقاء.

نفخت الريح الخفيفة قبعة لويلا، مهددة بالإطاحة بها.. كانت ترتدي الملابس التي اشترتها في اليوم السابق، بعد انتهاء العمل، فستان عاجي شاحب قريب من اللون الأبيض فوقه وشاح حريري أزرق يشبه لون السماء. بدت رائعة خلابة.

وصلت وايليون إلى هذا المكان قبل نصف ساعة، وذهبا فوراً إلى مقصورات الأعضاء ليلتقيا جماعة من أصدقائه، لم تكن شقيقتاه قد وصلتا، لكن «فارس البحر» لن يجري في سباقه قبل ساعة في السباق الكبير بعد الظهر.

تصاعد صوت الجموع إلى حد الهدير باقتراب الجياد إلى الحاجز الأخير.. لم يبق منها غير خمسة بينها جوادان فقط يتنافسان على المركز الأول.. كان الجوادان بالنسبة لعيني لويلا غير الخبيرتين متقاربين، لكن

www.liilas.com

امرأة طويلة في الخمسينات من عمرها عرفها إليها ايليون وهي اللايدي ويلسلو صاحت منفعلة:

ـ لقد فاز «سيكلون دوفرانس» بطول رأس! لقد ربحت عشرة جنيهات!

ابتسم ايليون للويلا.. كان يرتدي المعطف الذي كان يرتديه يوم التقته. في أثناء الطريق إلى لندن تحدث عفوياً عن ميتكالف، واصفاً جمال الريف. لكن، التلميح الوحيد إلى أية خصوصية بينهما هو إمساكه يدها بتملك بين الجموع.

اليوم بدا لها انطباعها الأولي بأنه خسر وزناً انطباعاً خاطئاً.. لقد بدا كاملاً نشيطاً ووسيماً.. وفي العينين الرماديتين ذلك السحر القديم، الذي جعل قلبها يقفز بردة فعل. ثم نظر من فوق كتفيها، وقال:

ـ آه.. ها قد وصلت عشيرة أوكلاند.

التفتت لويلا ليعرفها إلى ثلاثة أشخاص وصلوا للتو. كانت شقيقتاه تعتمران قبعتين عريضتين كقبعتها وهما في أواسط العشرين أي أكبر منها ببضع سنوات.. كانت ڤيرا وهي الأكبر سناً شقراء بشكل مذهل، متوردة الخدين، حولها جو يوحي بأنها زوجة رائعة لرجل ريفي محترم له شأنه وقد تولد لديها هذا الانطباع من مظهر زوجها سايمون المرح.

حيت آنا لويلا بدفء غير متوقع، مع ذلك بدت فضولية، تحاول تقويمها، وهذان أمران لم تحاول إخفاءهما. كان أول ما قالته للويلا:

ـ يا له من فستان جميل.. تبدين هادئة ومنتعشة فيه!

سأل سايمون، زوج ڤيرا:

ـ وكيف حال «فارس البحر» اليوم؟ أيبدو بصحة جيدة؟

ابتسم ايليون: كان منفعلاً قليلاً آخر مرة رأيته فيها.. إنه يتوتر أحياناً في الأيام الهامة.

تنهدت ڤيرا: أرجو ألا أخسر رهاني.. لقد راهنت بعشرين جنيهاً عليه!

سألها ايليون: «وكم أرجحية الفوز؟»

ابتسمت: «سبعة على أربعة».

نظرت إلى لويلا متذمرة:

ـ أتأخر دائماً، عندما سجلت رهاني كانت الأرجحيات قد تقلصت فلم يعد يستحق أن تراهني بشيء.

قالت آنا ساخرة: «ربما لا تكون العشرون جنيهاً شيئاً بالنسبة لك، لكنها ثروة بالنسبة لي».

قال ايليون يحاول شرح الموقف:

ـ تدير آنا مزرعة استنبات صغيرة.. حاولت أن أساعدها لكنها فخورة بعملها لا تقبل مالي، هكذا تعمل خمس عشرة ساعة في اليوم، وتعيش على الفتات.

سألت لويلا مبتسمة:

ـ أي نوع من النباتات تستنبت؟

ردت ڤيرا: «النباتات السنوية القادرة على الاحتمال.. هل تهتمين بالنباتات؟»

هزت لويلا رأسها: «أحبها كثيراً».

رأت تعابير وجه آنا تشرق فالتفتت إلى ايليون:

ـ عظيم.. لدينا إذن ما نتحدث عنه. فلنذهب إلى المقصورة، أنا نصف متضورة جوعاً يا أخانا الأكبر.

قالت ڤيرا باستمتاع: «هل أعددت لنا مائدتك المعتادة.. فالطريق طويلة من «نورفولك»، ونكاد نموت جوعاً!»

أخذت ذراع لويلا بطريقة أمومية.

ـ هل تهتمين بالسباق لويلا؟ أم تراه يضجرك؟

ابتسمت: «لا يضجرني بالتأكيد».

إن لجميع أفراد أسرة أوكلاند عينين رماديتين.. مع أن آنا، التي تذكرها بابليون، كان وجهها مختلفاً شكلاً عن وجه أخيها، تقدمت

www.liilas.com

لتمسك ذراع لويلا من الجهة الأخرى، تاركة سايمون وايليون في المؤخرة مع اللايدي ويلسلو، ومع سائر المجموعة.. فكرت لويلا: إن هذا ما هو إلا اهتمام أخوي فضولي، بالأنثى الجديدة في حياة أخيهما، ولا تلومهما على هذا.. ترى كم شاهدنا نساء يدخلن ثم يخرجن من حياته؟ مع ذلك لم يكن صعباً أبداً الحديث معهما، وقبل الوصول إلى المقصورة وجدت أنها تحبهما حقاً.

كانت المقصورة، ويا للدهشة، كبيرة جداً وهي إلى ذلك مشرفة على حلبة السباق.. وجدن غداء بارداً يسيل له اللعاب، محضّر قرب أحد الجدران، مع عشرة أباريق أو يزيد من الشراب والمرطبات مع الثلج.

ما زال ايليون منشغلاً بنقاش تقني رفيع المستوى عن ميزات الاستيلاد والتأصيل مع بعض ضيوفه، تحركت النسوة الثلاثة بكل سهولة ليأخذن دور المضيفات.

تلاقت عيناها بعيني ايليون وهي تقدم له طبق الطعام. أحست بحب عارم يسري في أوصالها. ما أروع وأجمل أن تكون دائماً قربه، تحبه وتساعده..

ما إن انتهى تقديم الطعام والشراب، حتى قادت آنا لويلا إلى الشرفة الخارجية بعيداً عن الجمع. جلستا تتأملان الحشود المحتشدة في الأسفل.

تنهدت آنا: هاك.. ها نحن بعيدتان عن الصخب.. أتمانعين إن سألتك عن عمرك؟

واجهت لويلا السؤال غير المتوقع بمقدار ما تستطيع من هدوء.

ـ بلغت العشرين، الشهر الماضي.

ابتسمت آنا: «تبدين متزنة اتزاناً لا تملكه من هن في مثل عمرك. أنا في السادسة والعشرين، على فكرة».

كانت العينان الرماديتان الذكيتان تقومان لويلا بدءاً من وجهها فيديها:

ـ اعذريني لويلا.. لا أعرف عنك الكثير.. وكذلك ڤيرا.. نعرف أنك أمضيت قسماً كبيراً من الشتاء مع ايليون في ميتكالف. وأظن أننا

نعرف السبب.

تورد وجه لويلا، لكنها لم تشح بوجهها، بل قالت بهدوء:

ـ أنا مدينة بحياتي لأخيك، آنا.

ارتشفت آنا من كأس عصيرها مفكرة، ثم وضعته جانباً:

ـ أكان الأمر بهذا السوء؟ لدينا فكرة بسيطة، مع أن ايليون برع دوماً في إخفاء كل شيء عن حياته الخاصة.. حتى عن شقيقتيه.

ابتسمت ثانية لتعتذر:

ـ لقد أخبرنا أقل ما يمكن من معلومات.. وقد قرأنا مقالتك في «الليبرتي». لقد كنت فائقة الشجاعة.

ـ بل كنت فائقة الحظ. لولا تدخل ايليون في حياتي، لكنت في هذه اللحظات، مرمية في قناة ما أو على جانب طريق ما.

طافت عينا آنا في فستان لويلا العاجي الأبيض:

ـ يصعب عليّ أن أصدّق.. الإدمان هو آخر ما قد أتوقعه منك.

ردت لويلا بابتسامة قلقة: لقد تغيرت بشكل مميز منذ السنة الماضية.. مع ذلك لا ألومك إن توقعت رؤيتي بحالة رهيبة!

هزت آنا رأسها:

ـ لم نتوقع رؤيتك بحالة رهيبة.. بعد قراءة مقالاتك، وسماعنا نبذة عن حياتك من ايليون، توقعنا أنثى ساحرة، حساسة، وذكية.. أنا وڤيرا مجرد امرأتين ريفيتين مرتبكتين لويلا. وستجدينا مملتين جداً، ولكن لدينا قلبين دافئين.

قالت لويلا بحرج:

ـ هذا واضح. وأنتما لطيفتان أيضاً.. أتريدين أن تعرفي ما حدث بالضبط؟

ـ لا.. فهذا أمر خاص بك وبايليون.. لكن، ألا تحملين له في قلبك أي نوع من.. الضغينة؟

اتسعت عينا لويلا السوداوان بدهشة:

www.liilas.com

- بالتأكيد لا أحمل له شيئاً.. ولماذا أحمل له ضغينة؟

- لقد مررت بمحنة مؤلمة.. تقول سالي جونز إن ايليون خطفك بطريقة ما واحتجزك في منزل مراقب الصيد في الأملاك، سجينة.. وشعرت بأنك كنت تعاملين بخشونة.. فهل هذا صحيح؟

- لقد عاملت السيدة جونز بفظاظة أيضاً. على الأقل، في البداية.. أجل، كان ايليون قاسياً ولا أنصح بهذا النوع من العلاج لأي مدمن.. لكن في مثل حالتي.

هزت كتفيها وهي تلتقط جناح دجاجة استعداداً لأكله.

- كان ذلك ما أحتاجه.. سأظل مدينة له بعمري. لماذا تعتقدين أنني غاضبة منه؟

قالت آنا عابسة: «لأنه شديد القسوة. وهذا ما يجعل دمي يبرد في عروقي أحياناً. لكن لا تخبري ڤيرا بالأمر.. فمخيلتها نشطة بشكل مميز.. هل خطفك فعلاً من فوق الرصيف..؟»

صمتت وهي تهز رأسها:

- أنا آسفة.. لا أريد في الواقع التطفل على ما حدث بينكما.

قالت لويلا بسهولة: «لا بأس في هذا».

نزعت آنا قبعتها الواسعة ووضعتها جانباً. وأكملت:

- لا شك أن ايليون أخبرك عن شقيقنا فرانسيس وعن سرطانه، وإدمانه. وعن موته.

وضعت لويلا طعامها من يدها:

- أجل، أخبرني.. وأنا آسفة.

قالت آنا بلطف: «لقد عانى معاناتك.. كنت في الثامنة عشرة عندما حدث ذلك، وكانت ڤيرا في التاسعة عشرة أما ايليون فكان في الرابعة والعشرين.. يجب أن تعرفي أن ايليون أصبح رب العائلة بعد موت والدينا. كان لنا أكثر من أخ، كان أمنا وأبانا كذلك.. تحمل كافة الأعباء».

قالت لويلا بلطف: «إنه بارع جداً في تحمل المسؤوليات».

وافقتها آنا الرأي.

- أجل.. إنه كذلك.. إنه أقرب ما يكون من الرجل الكامل.. ولكنني شقيقته على أي حال.. لقد تحمل هو الجزء الأكبر من مأساة فرانسيس.. تمكن من حمايتنا جميعاً بطريقة غريبة.. لكن المأساة طعنته بقسوة، ظل وقتاً طويلاً قبل أن يتغلب على ألمه، سنتين تقريباً.

أغمضت لويلا عينيها السوداوين، وأسندت رأسها إلى قماش المقعد.. كان حب ايليون مؤلماً، وكأنه ثقب ينزف بلا انقطاع في مكان ما منها..

سألت: «لماذا تخبرينني بكل هذا؟»

مالت آنا إلى الأمام قليلاً، وعلى وجهها ملامح الجد:

- لست واثقة.. ربما بسبب ما كان عليه في الأشهر القليلة المنصرمة، فحالته تذكرني بما كان عليه عندما مات فرانسيس.

فتحت عينيها بحدة وسألت: «ماذا تقصدين؟»

- حسناً.. أولاً نقص وزنه مؤخراً، ألاحظت ذلك.

- أجل.

- وكان يبدو سيء المزاج. ذهبت ڤيرا للإقامة عنده منذ شهرين، فانزعجت كثيراً.. كان منطوياً كئيباً، وهذا غريب منه، إنه لا يظهر ذلك والناس حوله.. فطالما برع في إخفاء مشاعره الحقيقة حتى عن شقيقتيه. ولكنه في هذه المرة لم يستطع، وليس ذلك فحسب بل هناك أمر آخر هو إهماله مزرعة الاستيلاد التي تعرفين ما تعني له.

- أجل.

- لهذا سرني لقاؤك. أردت أن أعرف إن كان لديك ما تستطيعين تقديمه من مساعدة.

- أنا!

قالت آنا تشرح:

www.liilas.com

ـ حدث له ما حدث منذ غادرت أنت ميتكالف. . طالما كان ايليون محاطاً بالنساء، ولكن لم يبدُ قط مهتماً بهن. . وربما كانت هذه المرة أمراً مختلفاً.

نظرت إليها لويلا بذهول وقد أدركت أخيراً ما ترمي إليه آنا:

ـ أتقصدين بالقول إنني السبب في هزال ايليون؟

ـ وهل هذا محال؟

يا لسخرية الموقف.

ـ آه. . آنا!

اهتزت مشاعرها كلها لأنها تسمع أن ايليون افتقدها وحزن على فراقها.

ـ أتعتقدين أنني أنا التي هجرته؟

فتحت آنا يديها: «حسناً. . .»

سحبت لويلا نفساً عميقاً لتسيطر على مشاعرها، وقالت بصوت هامس:

ـ أنا لم أهجره آنا. . بل اعلمي أنني أهتم بشقيقك أكثر مما أهتم بأي إنسان في العالم أجمع.

اسودت عينا آنا الرماديتان:

ـ إذن لماذا. . .؟

ـ هو الذي أبعدني عن ميتكالف. . كانت دوافعه مجهولة لي. . ولكنه «هو» من «أبعدني» لا العكس. . علم أنني وقعت في حبه، فظن حبي له مجرد افتتان، من الأفضل خنقه في مهده. هكذا دفعني للعودة إلى لندن. .

انفرج ثغر آنا الملتوي ولاحت عليه ابتسامة حريرية حلوة.

ـ آه. . كان عليّ أن أعرف. كان عليّ ذلك. . فجأة أحس بالأسف عليك أكثر من أسفي على أخي. . إنه في الواقع فارس شهم أكثر مما يلزم.

تفرست بوجه لويلا الشاحب الآن والجميل معاً:

ـ وأظن حبك له هو قوي كما كان دائماً؟

ـ لم يتغير قط.

كانت آنا تحدق إليها عندما خرج ايليون وضيفيه إلى الشرفة، في فيض من الحديث والضحك. . أحست لويلا بأصابعه القوية تطبق على معصمها، فرفعت بصرها إلى وجهه الأسمر الضاحك. .

تمتم: «إن أنهيت طعامك فلنذهب لتفقد «فارس البحر» و «الجوكي» قبل بدء السباق. أتريدين أن نأتي معي؟».

نظرت نظرة سريعة إلى آنا، وقالت:

ـ أجل أرجوك.

وقفت تلحق به إلى خارج المقصورة، خافقاً قلبها بين ضلوعها.

* * *

كانت حلبة العرض مكتظة. لقد وصل معظم الجياد وامتلأ الجو بالإثارة. . وقف ايليون ولويلا مع الفارس، يراقبان «فارس البحر» وهو يسير بخيلاء فوق العشب. كان سكوبي هيلسي، رئيس المدربين عند ايليون، معهم. . وجد الولد الذي كان يقوده صعوبة في كبحه إذ كان يرفع رأسه وكأنه يرفض اللجام، ويحفر الأرض بقائمته الأمامية ويرفس إلى الخلف على طريقة الرودبو التقليدية، مسبباً بتفرق المتفرجين والجياد الأخرى.

قال سكوبي متوتراً: «إنه قذر اليوم».

ابتسم ايليون: بل هو مفعم بالحيوية. . ما رأيك لاوسون؟

وازن الجوكي قبعته. . كان يرتدي ألوان أوكلاند، القرمزي والذهبي، ألوان عمرها قرون، كما قال لها ايليون يوماً. . وكانت تلمع في الشمس. . قال لاوسون باختصار:

ـ إنه أفضل حالاً وهو منفعل. . لدينا حظ كبير اليوم.

ـ هذا ما أظنه.

راقبت لويلا فريق التلفزيون يقترب منهم. ربتت المراسلة كتف ايليون

www.liilas.com

بشكل مألوف:

ـ مرحباً ايليون.. هلا أعطيتنا خمس دقائق من وقتك؟ إنها الأسئلة المعتادة.

هز ايليون رأسه، وتحرك إلى حيث يظهر الميدان الأخضر خلفه.. راقبته لويلا وكانت تفكر. أصحيح ما قالته آنا؟ هل اشتاق إليها؟ وهل عجز رغم مرور خمسة أشهر عن إخراجها من قلبه؟

حملت إليها الفكرة موجة غامرة من المشاعر.. كان ايليون واقفاً كالعملاق أمام الكاميرا، في كل ذرة منه دلائل الرجولة الكاملة.

أحست بفخر قوي يجري في عروقها.. إنه مهيب فعلاً.. أيكون لها؟ لا، هذا مجرد حلم.. وكما قال لها ليونارد بلات، إن تحقق الحلم هو الفرق بين حياة راضية وبين حياة ضائعة..

أعطيت الإشارة ليمتطي الفرسان جيادهم. ارتد ايليون في الوقت المناسب لمصافحة لاوسون.. وقال بهدوء:

ـ حظ سعيد.

ـ شكراً سيد أوكلاند.

شد خوذته متوتراً، وابتعد نحو فارس البحر.. دس ايليون ذراعه حول خصر لويلا، وشدها إليه.. كانت تتوق إلى هذه الحركة كثيراً.. ألقت رأسها على كتفه فشعرت بأمان لم تعرفه منذ آخر مرة ضمها إليه هكذا في مينكالف.

سألت: «هل فارس البحر على ما يرام؟»

رد بثقة: «سيفوز».

ابتسمت له، فإن قال إنه سيفوز فسيفوز.

كانت الجياد قد اصطفت في نقطة البداية، وكان فارس البحر يرفس متوتراً.

قال ايليون: «استرخ لاوسون».

انخفضت أصوات الجماهير ترقباً للحظات.. ثم ارتفع الشريط

وانبعثت الحركة.. انتقل فارس البحر بسحر ساحر، من مخلوق متوتر إلى صاروخ مندفع على أربعة حوافر سريعة ثم راح يسعى بقوة غريبة، وما إن وصلت الخيل إلى أول الحواجز، حتى كان أمامها جميعاً.

أدار ايليون ظهره للسباق بصورة غير متوقعة وسار مع لويلا على حلبة العرض، فسألت بذهول:

ـ ألا تريد أن تتفرج؟

ابتسم ينظر إليها: «ليس بشكل خاص.. يبدو أنك كنت منفقة مع شقيقتي».

هزت رأسها حائرة من سؤاله:

ـ إنهما لطيفتان.. خاصة آنا.

كانت أهدابه تخفي نظرته:

ـ أجل.. كنتما تتكلمان بحرارة على الشرفة، عم تحدثتما؟

ردت مرتبكة: «عن الجياد».

ـ كاذبة.. آنا مجنونة بالتطفل على حياة الناس.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن سمعي حاد.. كنت أقف قرب الباب، أتظاهر بالإصغاء إلى اللابدي ويلسلو ولكنني لم أستطع إلا الإنصات إلى آخر جزء مما كنت تقولينه لأختي.

تورد وجهها بشدة.

ـ آه! لا.. أدري ما أقول..

قال بصوت أجش:

ـ يا فتاتي الصغيرة.. تعرفين خير معرفة ما يجب أن تقوليه.

امتدت ذراعاه القويتان إليها، كما فعلتا في ألف ألف حلم وحلم.. شهقت أحاسيسها شهقة عميقة ثم ذابت بين ذراعيه كطير يعشش في حضن حام أمين.

همست وكان صوتها غير مسموع تقريباً بسبب هدير الجماهير.

www.liilas.com

www.liilas.com

ـ ايليون.. اشتقت إليك كثيراً.

قرّب وجهه من وجهها الملتهب، ثم عانقها بلطف وشغف فأذعنت لحرارته اللذيذة وتدفق الفرح بقوة إلى أوصالها. أغمضت عينيها استسلاماً تاركة رأسها يقع على صدره، وشعرها يلتف حول ذراعيه، أما يداه فأمسكتا وجهها.

لا شيء في الدنيا أهم من هذه اللحظات. إنها لا تعبأ بشيء، لا بعيون آلاف المتفرجين، ولا بهدير الحوافر، أو حرارة الشمس، أو بعدسات كاميرات التلفزيون المسترقة اللقطات.

كادت لا تعرف إن كان ما يحدث لها حلماً أم واقعاً، نظرت إلى العينين الرماديتين حالمة، وكأنما تنظر إلى أعماق روحها.. وكما دائماً، أحست بصدمة كهربائية تبلغ حد قلبها، وعرفت أن هذه الكهرباء لن تخبو أبداً.

لامس فمها بأصابع لطيفة:

ـ أنت جميلة بل أجمل من أية امرأة عرفتها. كان هذا ما فكرت فيه في أول يوم التقيتك في لندن. وهذا ما أفكر فيه الآن.. الله وحده يعرف كيف تصورت أنني قادر على العيش بدونك..

قاطعته بصوت مرتعش وهي تكاد لا تجرؤ على الأمل:

ـ إذن.. أنت تريدني؟

ـ أجل.. أريدك.. إلى الأبد.

ـ ايليون..

ـ جئت إلى لندن لأطلب منك الزواج لويلا.. وكنت سأطلب هذا الليلة.. أردت أن أرافقك إلى عشاء حالم حيث نرقص ونرقص حتى أسحرك بحيث لا تستطيعين قول لا.. لكن يبدو أن أختي العزيزة استبقت الأمور بيننا قليلاً.

ـ لا حاجة بك إلى أن تسحرني مجدداً.. لقد أحببتك منذ الأيام الأولى في ميتكالف، ايليون.. كنت أتدمر ببطء بدونك.

سأل بهدوء: «بدون تحفظات؟»

ـ أبداً.. أحبك.. ألا تفهم هذا؟

بلغ هتاف الجماهير ذروته فكاد يطغى على صوت المعلق الاعلامي. كان اسم فارس البحر يتصاعد مع الصياح، فابتسم لها:

ـ قلت لك إنه فائز.. ما رأيك بالعزلة في الريف بقية حياتك، مع عدة مئات من جياد السباق الناجحة ومعي؟

ـ هذا كثير عليّ.. وطالما حلمت به.. ستكون ميتكالف منزلي دائماً ايليون.. فيما سيكون أي مكان آخر العزلة بالنسبة لي.

قال يذكرها: «ستضطرين إلى التخلي عن وظيفة جديدة رائعة.. ألن تشتاقي إلى لندن وأنوارها البراقة؟ ألن تفتقدي استقلاليتك؟»

ـ استقلاليتي؟ كانت مجرد قفر فارغ.. لا شيء في حياتي الحالية قد أفتقده في ميتكالف.. أريد أن أنجب لك الأطفال يا حبي.. لا أريد الانتظار أكثر من هذا. أنا لم أؤمن قط بالأمهات العاملات.

سأل بدهشة مفتعلة:

ـ أطفال؟ ألا يكفي واحد؟

ـ صبي في البداية.. ولكن أريد على الأقل أربعة فيما بعد.. وسأفعل ما أريد.. تعرف هذا.

ـ أجل حبيبتي، أعرف أنك ستفعلين.

رفعها عن الأرض يضحك في عينيها بانتصار رجل يريد امرأته. ضاعت لدقائق معه مجدداً.. أخيراً قالت بأنفاس مقطوعة:

ـ ايليون.. انظر.. يكاد السباق ينتهي!

التفتا معاً في الوقت المناسب لمشاهدة الشوط.. كان فارس البحر متقدماً بثلاثة أطوال، أحست في تلك اللحظة بأنها تريد أن يكسب ذلك الحيوان الرائع.

ولم يخذلها.. ولحق به سائر الجياد المتسابقة وهو يقطع الخط الأبيض، بكل ما فيه من حيوية وطاقة.. وجن الجمهور ابتهاجاً.

www.liilas.com

www.liilas.com

ابتسم ايليون: «هذا انتصار للذكرى.. فهل نذهب؟»

أحست بأن ساقيها أوهى من ان تسير عليهما وكان عليها أن تتعلق بايليون وهما يسيران إلى باحة تجمع الجياد حيث كانت النهاني تنهمر عليهما من كل حدب وصوب.. على الشرفة فوقهما، لمحت آنا وڤيرا تلوحان.. ربما كانت المسافة خادعة ولكنها ظنت أن عيني آنا اغرورقتا بالدموع.

وقفت إلى جانب ايليون وهي لا تعرف إلا أنها سعيدة.. فلقد عاد إليها مجدداً.

لقد عاد إليها أخيراً، كما تمنت دائماً.. وانتهت محنة الوحدة. من الآن فصاعداً سيبقى ايليون دائماً إلى جانبها، يحول حياتها، يكملها، يحقق أحلامها، ويجعلها راضية، فرحة وحية. نظرت إليه ووجهها يلمع تحت أشعة الشمس.

سألت: «لماذا تأخرت هكذا؟»

ـ لأكون متأكداً..

ومضت الكاميرات التي بهرت بصرها في اللحظة التي وضع فيها كأس الفوز الذهبي بين ذراعيها.. ثم عانقها احتفاء بالنصر، فشاهدها ما يقارب العشرين مليون مشاهد تلفزيوني..

أضاف: «لأتأكد من قدرتك على التقاط قطع حياتك التي تناثرت من دوني.. لأتأكد أنك لن تنسيني ما إن نبتعد».

تنهدت: «آه! ايليون.. وأنا من ظننتك تثق بي!»

ـ من الآن فصاعداً لن تبتعدي عني.

كانت عشرات أجهزة التلفزيون حول الميدان الواسع تُظهر منظراً واحداً، صورة جواد كستنائي كبير يجتاز نقطة النهاية، وجسدي امرأة ورجل، متعانقين عناقاً حميماً، بلهيهما عن كل العالم.

تكررت الصورة عشرات المرات في كل أنحاء ميدان السباق.. كما ستتكرر فيما بعد مع معاني تزداد عمقاً، وشدة تزداد قوة، طوال حياتهما الرغيدة القادمة.

www.liilas.com

www.liilas.com